تراجع العَالَم الإسْلَاميّ منذ العُصُور الوُسْطَى:

مراجعة التّفسيرات

جاك براسول

ترجمة: عبد اللّطيف المُوسَويّ (*)

المُلخَّص

فقد العَالَم الإسْلَاميّ مكانته البارزة بين الحَضَارَات العظيمة بعد أن كان يعيش عصره الذهبيّ في العُصُور الوُسْطَى، تاركًا عجلة الثّورة العِلميّة تدور في أوروبّا الغَربيّة في القَرْن السّابع عشر، والثورة الصّنَاعيّة في القرنين الثّامن عشر والتاسع عشر. بجانب ذلك، ولد في أوروبّا في الحقبة نفسها نظام سِيَاسِيّ واقتِصَاديّ تمثّل بالسوق الرّأسماليّة الدّيمُقرَاطيّة، مع الميل إلى تبنيه في كُلّ مكان تقريبًا. تستعرض هذه الدّراسة في القسم الأول منها، خصائص هذا التّراجع وفي القسم الثّاني تلقي الضّوء على النّظريات التّفسيرية الرّئيسة له، انطلاقًا من العوامل الجغرافية حتى العوامل المُؤَسّساتية، مرورًا بالتحليلات الاقتِصَاديّة والسّكانية.

الكلمات المفتاحية: الاسلام، العصور الوسطى، الزراعة، التجارة الدولية، التركيبة السكانية، الؤسسات، الدين، العبودية، المدن النقل.

(*) أكاديمي - كرسي بحث في استغلال المصادر المعلوماتية / جامعة الجنوب تولون – فار.

«عندما قال الجنرال نابليون بونابرت لشيوخ عرب أثناءَ حَدِيثه معهم: إنَّ العربَ قد أقاموا دعائم الفُنونِ والعُلوم منذ زمن الخُلَفاء، لكنَّهم اليومَ في جَهلٍ مطبق ولم يبقَ لهم شيء من عِلم أسلافهم. أجابه الشَّيْخ أبو الأنوار السّادات أنّه بقي لديهم القُرآن الذي يحتوي على كُلّ المعارف. فسأل الجنرال بونابرت ما إذا كان القُرآن يعلّم كيفية إطلاق المدافع ليردّ جميع الشّيوخ الحاضرين بجرأة: نعم». (لورنس، موسوعة مصر، ١٩٨٩، دار أرماند كولين). إن مسألة تراجع الحَضَارَة الإسْلَاميّة منذ العُصُور الوُسْطَى ما انفكت تؤجّج جدل المُؤَرِّخين ورجال الاجتماع والجغرافيا والاقتصاد. يتحدث بروديل (١٩٧٩) عن «المشكلة المزعجة المتمثلة في الانحطاط وهي مشكلة ليس لها حل للأسف ». مع ذلك فثمة حلول وتفسيرات سيتم عرضها هنا، عبر مقتطفات من دراسات مهمة. يتحدث برنارد لويس، في كتابه عن تاريخ الشّرق الأوسط (١٩٩٦)، عن مُسَاهَمَة ثَقَافِيّة ثلاثيّة للعَالَمِ الإسْلَاميّ: المُسَاهَمَة الفَارِسِيّة منذ العُصُور القديمة والمُسَاهَمَة العَرَبيّة مُنذُ القَرْنِ السّابع والمُسَاهَمَة التّركية مُنذُ القَرْنِ الحادي عشر. كما تأثّر العَالَم الإسْلَاميّ بآسيا الوُسْطَى والصّين، وكانت قوة هذه الأخيرة ذات تأثير في رفض الغزاة الذين استهدفوا الغرب، وبلاد الإسْلَام، وقد كانت الحال على هذا النّحو إزاء المغول، ثم الأتراك، مُؤَسّسي الدّولة العُثمَانِيّة. لقد دفعت أحداث السّنوات الأخيرة هذه المنطقة الواسعة إلى واجهة المشهد العَالَمِيّ، مع صعود الأصوليّة والإسْلَام الرّاديكاليّ ووقوع هجمات ١١ سبتمبر/أيلول واندلاع عدد من الصّراعات في السّنوات الأخيرة في الشّيشان وكوسوفو وأفغانستان والعراق وفلسطين والجزائر التي يعيش فيها شعوب مُسلِمَة. وبحسب تعبير هنتنغتون (١٩٩٦) فإنَّ الإسْلَام حاليًا ذو حدود دموية. سنحاول هنا الرّبط بين النّظريات المختلفة بشأن التّراجع والوضع الرّاهن في العَالَم الإسْلَاميّ، عارضين خصائصَ هذا التّغير ثم تحليلها.

١. مسألة التّراجع

١. ١. من العظمة إلى الانحدار

«حبر الطّالب أقدس من دم الشّهيد». (النبي محمد)

لقد بلغ الإسْلَام أوجَهُ في العُصُور الوُسْطَى، وهيمن فِكريًّا وفَنيًّا وعِلميًّا. كان يقع على مفترق طرق التّبادلات التّجاريّة، واقتصاده هو الأكثرُ تطورًا. وكانت المُدن الإسْلَاميّة الكبرى تُضاهي اليومَ نيويورك ولندن وباريس وطوكيو. وهذا ما عبّر عنه، عَلى سَبيلِ المِثَال، ابن خلدون الذي انبهر عند وصولِه إلى مصرَ: «من لم يرَ القاهرةَ لا يتمكّنُ أبدًا من قياسِ درجةِ قوةِ الإسْلَام وعِزه». في القَرْن العاشر، شهدت إسبانيا المُسلِمَة (الأندلس في زمن الحَاجب المنصور الذي كان خليفةً على قُرطبةَ من ٩٧٦ الى ١٠٠٢) نهضة في العلوم العَرَبيّة تقدمت بوقت طويل على غيرها: «علم مستورد في بادئ الأمر من الشّرق، على خلفيّة الثّقافة الهلنستيّة واللّاتينيّة، ثم أصبح علمًا أصليًّا في جميع المجالات منها الجَبْر وعلمُ الفلك وعلم الأحياء وعلم النّبات وعلم الحَيوَان والمُوسيقى. اعتمدت الأندلس نظام التّرقيمِ الهِنديّ المعروف

بنظـام التّرقيـم الموضعي، بأسـاس ١٠ يصبح محـوره صفـرًا. ومـن هنا أخـذ العلمـاء العرب يهتمـون بتفسـير الطّبيعَـة أقـل مِمَّـا يعملـون عليها. وقـد حفّز هـذا التّحول النّفعـيّ المواهبَ والاختراعـاتِ. وكان يعيش فـي قرطبةَ واحدٌ من أفضلِ الجَرّاحينَ المُسلِمينَ وهو الزّهراويّ. وقد تم بناء القبَّة السّماويّة هناك، وصنعتْ الاسطرلاباتُ والسّاعات والأقراص واستخدمت الجداول الفلكيّة الهِنديّة؛ وفتحت حدائق الحيوان وحدائق النّبات؛ وطورت دساتير الأدوية. «(لانغلييه ٢٠٠٠). من جانبه، ينوه دايموند (١٩٩٧) أيضًا بالتّقدم الذي شَـهِده العَالَمُ الإسْـلَاميّ، ملقيًا الضّـوء على هذا المنعطف:» كان الإسْـلَام في العُصُور الوُسْـطَى متقدمًا في المجال التّقنيّ ومُنفتحًا على الابتكار، وقد وصلَ في مَجال مَحو الأمّيَّة إلى مستوىً أعلى بكثير مِمَّا هو عليـه الحال في أوروبّا المُعَاصِرَة، كما اسـتوعب تُراثَ الحَضَـارَات القديمة. اخترع وطـوّر طواحين الهـواء، وطواحيـن المياه (من ضمنها تلك التي تسـتخدم المَدّ والجَـزر)، وعِلمَ المُثلثّات، والأشرعة اللّاتينيّة، وأحرز تقدمًا كبيرًا في علمِ المَعـادِن والكيميـاء والميكانيكا، وطوّر تقنيّـات الـرّي، واعتمد الـوَرَق والمَسـاحيق من الصّين. وشـهدت العُصُور الوُسْـطَى تدفقًا هائلًا للتكنولوجيـا من البُلدان الإسْـلَاميّة إلـى أوروبّا، وليس العكس كما هو الحال اليوم. ثم انعكسـت صافـي التّدفقات في نحو سـنة ١٥٠٠ «.إذًا فقد بلغتْ هذه التّدفّقات ذروتَها في نحو سنة ١٥٠٠، علـى وفقِ دايموند، لكـن كتّابًا آخريـن يُؤرّخون بدايَة التّراجُع إلى أوقاتٍ مُختلفَة. إذ يرى لانديس (١٩٩٨) إمكانية تحديـد ذروة هذا الأمر في عام ١١٨٧، عندما اسـتعادَ صـلاح الدّين القدس من الصّليبيّين: «من تلك اللّحظة، أخذ مسـارُ الإسْلَام يَنحـدرُ فـي الغالـب.» تواصلـت عمليـة تحقيق مكاسب كبيرة في فتح الأقاليم وتنامي الإيمان، ولا سـيما في أوروبّا على يد الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة، لكـن التّراجع ظهر بوضـوح في القَرْن السّـابع عشـر: «لا يمكن لأيِّ شـخص ينظر من حوله أن يَعمَى عن تحوّل ميزان القوى؛ لقد أصاب الإسْلَام ركودٌ اقتِصَاديّ وفكريّ ».

ثمة تاريخ آخر يُطرَح كثيرًا هو تاريخ الغزوات المَغُولِيّة: حكم المَغُولُ بعد تدمير بغدادَ (١٢٥٨) العراقَ وإيرانَ ما يقربُ من قرنٍ من الزّمان، لكن المَمَاليكَ القادمين من مصرَ، وهم نخبةٌ عَسكَريّة كانوا عبيدًا في السّابق، تمكّنوا من هزيمةِ المَغول والقبضِ عليهم في سـوريا، وقد اسـتتبّتْ الأمورُ لهم في القاهرة تمامًـا بعد ذلك. كانتْ تلكَ نهاية التّمدّد المَغُولِيّ نحو الغربِ، لكن العَالَم الإسْلَاميّ لـم يتعافَ مـن هذا الغزو إلا بصعوبـة، فقد كان له آثار رهيبـة ودائمة على الاقتصاد مِمَّا تسـبَّبَ علـى وجـهِ الخصوص فـي كارثة غير مسـبوقة لحقت بشـبكة الرّي (لورينز، ٢٠٠٠). وبالنسبة لرالـف بيتـرز[١]، فإنه يـرى أن التّراجـع بدأ في أواخر العُصُور الوُسْـطَى: «قبل عشر سنوات من اختراع الطّباعة على يد غوتنبرغ، قام أمير وعالم فلك ورياضيات وشـاعر هو ألغ بيك من سمرقند

(١) يُنظـر كتابـه: ما وراء بغـداد: حرب وسـلام ما بعد الحداثة، ٢٠٠٣، دار ستيكبول بوكس.

ببنـاء مَرصـد كبيـر. كان هـذا العبقـري بمثابة غاليلـو في بلاده. لكنَّ رجـال الدّين اغتالوه وتلك كانت نقطة شروع ليبدأ منها كُلّ شيءٍ بالجمود. هنـاك عددٌ كبير من العوامل التي أدّتْ إلى تراجعِ الإسْـلَام، لكنَّ الحجـم الكبير لذلـك التّراجع يدلّ على أنَّه لا مخرج منه، كما أن المُسلِمينَ لم يعملوا مـا بوسـعهم لتفاديه. ولم يَأتوا قـطُّ بأي إصلاح لكسـر هذا المسار الوحيد». بدوره، يورد بروديل (١٩٧٩) التّواريـخ المُختلفـة المُقدّمـة لتراجـع الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة، وريثةِ الإسْـلَام التّقليدي: «بالنّسبة للبعض، إنّ التّراجعَ السّيَاسِيّ بلغ أوجَهُ في مطلع العام ١٥٥٠، في السّـنوات الأخيرة من حُكمِ سـليمانَ القانونيّ. وهناكَ من يَرى أن سنة ١٦٤٨ هـي العلامـة الفارقة في تراجع الإسْـلَام (اغتيـال السّـلطان إبراهيـم الأوَّل). وإذا كانَ لا بـدَّ من اقتـراحِ تاريخ، فأنا أفضّـل أنْ يَكونَ عام ١٦٨٣، وهـو اليوم التّالي للحصـار الدّراماتيكي لفيينا، عندما قام السّـلطان بخنق الصّدر الأعظم قرة مصطفـى في بلغراد، الـذي كان البطل غير السّعيد في الدّولة العُثمَانِيّة. أخيرًا، يرى حوراني (١٩٩١) أن التّراجع يعود إلى القَرْن الثّامن عَشر ولا غيـر ذلك، أي عند بواكير الثّورة الصّنَاعيّة في الغرب: «حتى منتصف القَرْن، كان العُثمَانِيّون ما يزالونَ ينظرون إلى العلاقـات بين الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة وأوروبّا المَسـيحيّة على أنها مبنية على أسـاس تكافؤ القوى، ولكن فـي الرّبع الأخير من القَرْن، أخذ الوضع يتغير بسـرعة وبشـكل حاد، إذ اتسـعت الفجـوة، أكثـر فأكثـر، بيـن تقنيّات عدد من بلدان شـمال غرب أوروبّا وتقنيات بقية العالم». وأيًّا كان صحيحًا من هذه التّواريخ الآتية ١١٨٧، ١٢٥٨، ١٥٠٠، ١٥٥٠، ١٦٨٣، ١٧٥٠، فـإنَّ تراجع الإسْـلَام أمر لا جدالَ فيـه، وإنْ كان ليفي شـتراوس (١٩٥٢) يذكّرنا، وهو على حق، بضـرورة أن نتحلـى بالحذر عندمـا نتحدث عن تقـدم أي حضـارة او تقهقرهـا: «إن مثال ثورة العَصر الحَجَـريّ الحَدِيث يجبُ أنْ يوحيَ ببعض الاعتـدالِ فـي ما يتعلّـقُ بالتَّفوّق الـذي يمكن أن يَميلَ الإنسـانُ الغَربيّ إلى ادعائه لصالح عِرق أو منطقـة أو بلد. لقـد وُلدت الثّـورة الصّنَاعيّة في أوروبّا الغَربيّة، ثـم ظهرت في الولايات المتّحدة، وبعد ذلك في اليابان، ومنذ عام ١٩١٧، تسارعت هذه الظّاهرة في الاتحاد السّوفييتي، ومن المؤكد أنها ستنشـأ غدًا فـي أماكنَ أخـرى؛ ومن نصفِ قـرن إلى آخـر، تضيء بلهـبٍ يتفاوت سـطوعُه كثيـرًا في هـذا الموقع أو ذاك. في جيـل الألفيّة، كيف يكـون شـكل المسـائل ذات الأولَويَّة، التي نستمدُّ منها كثيرًا من الغرور؟. لقد اندلعت ثورة العصـر الحَجَريّ الحَدِيث في حـوض بحر ايجه ومصرَ والشـرق الأوسط ووادي السّـند والصّين فـي وقت واحدٍ وفي غضون ألفٍ إلى ألفي سـنة. ومـن المُحتمل، فـي خضمّ هـذه المنافسـة، أن تطالب ثلاث مناطق صغيرة أو أربع بأولَويَّة. في المقابـل نحن علـى يقين من أنّ مسـألة الأولَويَّة ليست ذات أهَميَّة، وذلك تحديدًا لأنَّ تزامن ظهور الاضطرابـات التّكنولوجيّة على مناطق شاسـعة وفي مثل هـذه المناطق النّائية، يُبيّن بوضوح أنّ الأمرَ لا يعتمدُ علـى عبقريّةِ عِرق أو ثقافة، وإنما على ظروف عَامَّة خارجَ وعيِ البَشـر. إذًا فلنتيقنْ

مــن أنَّ الثّورة الصّنَاعيّة لو لم تظهر للمرة الأولى في أوروبّا الغَربيّة والشّــماليّة، لكانــتْ قد تَجَلَّت ذاتَ يوم في جزءٍ آخر من العالم. وإذا كان امتدادُ الثّــورةِ الصّنَاعيّــة إلى الأرض المأهولــةِ بأكملها أمــرًا لازمًا، كما هو مُفتَرض، فإنَّ جميعَ الثّقافاتِ ســتقدم كثيرًا من المُسَاهَمَات الخَاصَّة، بحيث أن مُؤَرِّخي الألفيّة المُقبلة ســيعدّون بشكل مَشروع أنّ معرفة مَن بوســعه، علــى مدى قرن أو قرنين، المطالبة بالأولَويَّة للجميع مسألة عقيمة.

١. ٢. مظاهر التّأخّر

يرى لين وايت (١٩٧٨) أن جذور التّقدم التّقني فــي أوروبّا تعود إلــى أوائل العُصُور الوُسْــطَى، عندمــا أخــذ الفَلَّاحــون والحرفيّون فــي تطوير تقنيّــات وابتــكارات أكثر كفاءةً مِمَّــا عليه الحال فــي الثّقافات الأكثر تقدمًا من أوروبّا في بيزنطة والبلدان الإسْلَاميّة. في القَرْن الخامس عشر وبعد مرور ما يقرب من ألف ســنة، ومع تصنيع الآلاتِ الأكثر تعقيدًا، أخــذت أوروبّا تتخطى الحَضَارَات الأخرى وتمسك بزمام المبادرة عالميًا في المجال التّقني. وقــد جاءت بعض الابتكارات من الصّين، وبعضها الآخر تم تصنيعهــا مَحَليًا. وقد ترجمت نتيجة هذا التّطور في تكوين رأس المال العينيّ، ورأس المــال المــاديّ المتقدم، وهــو رأس المال الحَدِيــث في بدايات الرّأسـماليّة: «وصل البارود من الصّين إلــى أوروبّا خلال البلدان الإسْــلَاميّة. استُخدمتْ الصّواريخ في كولونيا سنة ١٢٥٨، بعد ذلك بعام عرفها روجر بيكون. ومن غير الواضح مــا إذا كان المدفــع (وهــو أنبــوب معدني حيث تقــذف الغازات عند تمددها قذيفة المدفع) قد تم اختراعــه في الصّيــن أو أوروبّا. ظهــرت المَدَافع في الغرب في عشــرينيّات القَرْن الرّابع عشر في ١٣٢٠، وبالتأكيد لم تُعرف في الصّين إلا في عام ١٣٣٢. وحصلت الحَضَارَة الإسْلَاميّة على المدفع عن طريق الغرب، شــأنها في ذلك شــأن اليابان، وذلك في القَرْن السّادس عشــر. في بداية القَرْن الثّالث عشــر كانت الاتصالات بين أوروبّا والصّين نشــطة للغاية لدرجة أن الاقتراض كان من يمكن أن يحدث في كلا الاتجاهيــن. كان تطور البارود والمدافع فــي أوروبّا بطيئًا ولم تصبح الأســلحة النّاريــة الصّغيــرة فعّالــة إلا في النّصــف الثّاني مــن القَرْنِ الخَامس عشــر. ومع ذلك، أصبح لدى الأوروبّييــن، بحلول عــام ١٥٠٠، أفضل المُعدّات العَســكَريّة في العالم على الإطلاق، فبَنَوا صناعة كيميائيّــة مهمة لإنتاج البــارود والمَعادن الثّقيلة لتســتخدمَ في صنــع المدافع، فأوجدوا ترســانة يمكنهــا غــزو العالم. وفــي عــام ١٥٠٠، منحت الدّينامية التّكنولوجيــة فــي العُصُور الوُسْــطَى أوروبّــا إمــدادات منتظمة من الغــذاء والمهارات الميكانيكيــة والصّنَاعيّــة وميــزة في الأســلحة، وتقانة بحريّة ســمحت لهــا بالمغامرة في جميع البحار، وكُلّ ذلك سَــمَحَ للغَربيّين حينذاك بجمع تواريــخ الشّــعوب، التــي كانــت مُنفصلــة حتى ذلــك الوقت، فــي تجربة فريدة للبشــرية جمعاء. لقد كانــت لحظة تاريخية لا يمكــن أن تحدث إلا مــرة واحدة». لم يســتطع العُثمَانِيّون في العصر الحَدِيــث مُواكبة الابتكارات التــي أنجزتها أوروبّا الغَربيّــة، التــي أخــذت تتســارع بــدءًا من عصر النّهضــة، مــن ضمنها الانجــازات فــي المجالَين العَســكَريّ والبَحــريّ، كما يذكــرُ البرت حوراني

(١٩٩١): «خـلال قرون مـن الحكـم العُثمَانِيّ، كان هنـاك انخفاضٌ في المَعايير العِلميّة ونقصٌ في التّقـدمِ التّكنولوجيّ. وكانت المعرفة باللُّغاتِ الأوروبيّـة محـدودة، وكذلك المعرفـة بالتقنيّات المنجـزة فـي أوروبّـا. عَلـى سَـبيلِ المِثَـال، إن نظريـات كوبرنيكوس في مجـال الفلك، لم تُذكر للمـرة الأولـى إلا في نهاية القَرْن السّـابع عشـر وبايجـاز، وبينما كانت أوروبّا الغَربيّة مُنغمسـة فـي عمليّـة مسـتمرّة لمراكمة مواردهـا، وتقليل المَجاعات والأمراض، كانت البلدان التّابعة للدّولة العُثمَانِيّـة، كما هو شـأن أجزاء أخرى من آسـيا وأفريقيا، لا تزال عرضـةً للطّاعون مع نقصٍ في الغذاء، فانخفضَ عدد السّكان في بعض الأماكن، كما لم يسـفر الإنتاج عن استثمارات. وأيضا ثمة انتكاسةٌ عَسـكَريّة، فمع الهزيمةِ أمامَ الرّوس في عـام ١٧٧٤، الذين قاموا بتحَدِيث جيشـهم على وفـق الأسـاليب الغَربيّة، لـم يعدْ البحرُ الأسـودُ بحيرةً عُثمَانِيّة، واسـتقر الرّوس في شبه جزيرة القَرم، وهي منطقة يسكنها المُسلمون، وضمُّوها إلى إمبرَاطوريّتهم، وأسَّسـوا مدينة الأوديسا. (...). وفـي مـا يتعلق بالتجـارة مع أوروبّـا، فإنَّ دول الشّـرق الأوسط والمغرب العَرَبيّ تميل إلى توريد الموادّ الخام وشراء المُنتجات المصنَّعَة».

وفـي العصـر الحَدِيـث أخيـرًا، بـدا انحطاط الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة صارخًا في القَرْن التّاسع عشر، على الرّغم من محاولاتِ الإصلاحاتِ (انشاء التّنظيمـات في الدّولة العُثمَانِيّـة) ونهضة مصرَ فـي عهد محمـد علي (راجـع لورنـس ٢٠٠٠). ولـم يسـتطعْ العَالَمُ الإسْـلَاميّ مجابهة التّوسّـع الاسـتعماريّ الأوروبـيّ. كمـا لـم يَتـدارَك هـذا التّأخر بعد الحـرب العَالَمِيّـة الثّانية، بالرغم من نيل الاسـتقلال. وقد سـعى تقرير لبرنامج الأمم المتحـدة الإنمائيّ خـاصّ بالعالـم العَرَبيّ، كتبه فريق من الباحثين المُسـلِمينَ، إلى تحديد أسباب الفَشَل الاقتِصَاديّ. وقد تحدثت الصّحافة عن ذلك مُشـيرة إلى إفلاس اقتِصَاديّ واضح لـ ٢٢ دولة تمتد من الخليج إلى المُحيط الأطلسـيّ (لوبوشيه ٢٠٠٣). ويعد مؤشر التّنمية البشرية هذا متخلفًا أكثـر من أي مكان آخر، باسـتثناء منطقة جنوب الصّحـراء الكبرى في أفريقيا، فالقطاع الصّنَاعيّ الخَاصّ هامشيٌّ وغير ديناميكيّ للغاية، والأبحاث بدائيّة، ورأس المال يتسرّب من تلك البلدان ليذهبَ إلـى العالم المُتقـدّم أو إلى المَـلاذاتِ الضّريبيّة. وتركنُ الأيدي العاملـة المُؤهّلة، التي غالبًا ما يتم تدريبها في الخـارج، إلى البقاء هنـاك... وتميل حلقة مفرغة مـن عدم الثّقة إلى التّوطّن مِمَّا يحد من الاستثمار والتوظيف والإنتاجية، ما عدا حالات اسـتثنائية قليلـة مثل تونـس. إزاء هـذا الوضع، تخفـي ردود أفعـال الضّحايـا، الذيـن غالبًـا ما يحصلون على دعم حكومي، المشكلات الحقيقية وتشـجع على ظهور التّطرف. تتلخص تفسيرات التّقريـر بما يأتـي: ثغرات على مسـتوى الحرية السّيَاسِـيّة، والمعرفـة، وتمكين المـرأة، وهو ما يسميه المؤلفون «نواقص العالم العَرَبيّ الثّلاثة»: - نقص الحريات: أنظمة استبدادية و/أو أبوية[٢]،

(٢) كان الرئيـس المـصري الراحـل أنـور السـادات يبدأ خطاباته للمصريين بكلمة: أبنائي

انتخابـات مزورة، خلـط بين السّـلطة التّنفيذية والتشريعية (لاحظ المُؤلّفون غياب المُصْطَلَحات التي تميّز بين أنواع السّـلطات باللُّغَـة العَرَبيّة)، والرّقابـة، والضّغوط الاجتماعيـة والدّينية، وعدم تـداول السّـلطات مـن خـلال التّصويـت، الـخ. عـلاوة على ذلـك، فـإنَّ المناصـب لا تُنَـالُ بناء علـى الجدارة، بلْ اعتمادًا علـى العلاقات، فالمرءُ لا يَحظَـى بوظيفـة في الخدمـة العَامَّة اسـتنادًا الـى ما يملكُـه من معرفة، بل بفضـلِ علاقاتِه ... وتمارس معظم دول المنطقة مزيجًا من «القوميّة الحِمائيّة والاشتراكيّة البيروقراطيّة»، فهي تقاوم الانفتاح السّيَاسِـيّ والاقتِصَاديّ وتحبس نفسـها في «دولانية[٣] مغلقة».

- تمثّـل الثّغرات المعرفية النّقص الثّاني: تتسـم هـذه البلـدان بتدهـور التّعليـم، وعـدم مواكبته لاحتياجـات الاقتصـاد، وافتقـار عـدد هائل من الأطفال للتعليم بشـكل تـام (١٠ ملايين طفل لم يلتحقـوا بالمـدارس منذ عـام ٢٠٠٨ في مجمل العالـم العَرَبيّ)، وارتفاع عـدد الأميين. والأبحاث والتطويـر محـدودان، والتقنيـات الجديدة قليلة الانتشـار (١٪ من السّكان لديهم جهاز كمبيوتر، ونسبة من بوسعه الوصول إلى الإنترنيت أقل من ذلـك). ويخلص التّقرير إلـى خاتمة لافتة للنظر: بعد نحو ١٢٠٠ سـنة من حكم الخليفة العباسي المأمون (٧٨٦-٨٣٣) فإنَّ عدد ما ترجمه العرب يعـادل مـا تترجمـه إسـبانيا في عـام واحد في عصرنا الحاضر.

- تدنـي مكانة المرأة: نصـف القدرات الإنتاجية للمرأة يسـتخدم بشكل سـيئ أو محدود، وهو ما يفسـر إلى حد كبير هذا التّخلف. وغالبية النّساء ليس لديهـنَّ عمل ذو مـردود، ومسـتبعدات من سوق العمل، وامرأة واحدة من كُلّ اثنتين لا تجيد القـراءة والكتابـة، وهناك ٤٤ مليـون امرأة أمية من مجموع ٦٥ مليون أمي في البلدان المشمولة بالبحث.

علـى المسـتوى الاقتِصَـاديّ ينفـي كوهيـن (٢٠٠١) وجـود «لعنـة إسـلاميّة». ولكي نقتنع بذلك، حسـبنا أن نقارن تطور الـدّول المجاورة، التي تَسـكنُها الشّعوبُ نفسـها، بعضها إسلاميّة مقابل أخـرى غير إسـلاميّة: فقد فاقـت ماليزيا المُسـلِمَة تايلاند في التّطور (٦٩٩٠ دولارًا للفرد مقابل ٥٨٤٠)؛ فيما السّـنغال إزاء سـاحل العاج (١٧٥٠ مقابـل ١٧٣٠)؛ وباكسـتان إزاء الهنـد (١٥٤٠ مقابـل ١٧٠٠)، إلـخ. والشـيء نفسـه ينطبق على المؤشرات الاجتماعية والدّيموغرافية، التي لا تتضمن فوارق كبيرة. عَلى سَـبيلِ المِثَال، شـهدت اندونيسيا المُسـلِمَة انخفاضًا في مؤشر الخصوبـة أكثـر مِمَّـا هو عليـه الأمر فـي الدّول المجـاورة (٢,٦ طفل لـكل امـرأة، مقابل ٣ في الهند و٣,٦ فـي الفلبين). من جهـة أخرى، فإنَّ

(٣) سـيطرة الدولـة أو(الدولانيـة)، تعني انـه يجب على الدولـة ان تسـيطر اما عـلى الاقتصـاد أو على السياسـة الاجتماعيـة أوالاثنين معاً.وفي العلوم السياسـية، الدولانية هـي المبـدأ القائل بأن السـلطة السياسـية للدولة تتسـم بالشرعية إلى حد ما. قد يشـمل ذلك السياسـة الاقتصادية والاجتماعيـة بالأخـص فيمـا يتعلق بالضرائب ووسـائل الإنتاج.(ويكيبيديا- المترجم).

لــم تكــن الــدّول الإسْــلَاميّة قــد واكبــت التّطور الدّيمُقرَاطيّ الحاصل في أمريكا اللّاتينية وأوروبّا الشّــرقيّة وبعض البلدان الآســيويّة منذ ســقوط جدار برلين في عام ١٩٨٩، فلعل مجرد أســباب عابــرة وراء غيــاب الدّيمُقرَاطيّــة فيهــا. ويمثّــل صعــود الإسْــلَاميّين الذين يحتكــرون المعارضة عقبــة أمام إجــراء الانتخابات وتناوب السّــلطات السّياســيّة. إن الطّبقة الوُسْطَى، التي من المُمكن أنْ تَكــونَ هي المهيمنة في النّظــام الدّيمُقرَاطيّ، تتردَّدُ في السّعي لإجراء انتخابات حقيقيَّة، خوفًا من تخليها عن السّلطةِ بشكلٍ نهائيّ للمتطرّفين: «الســبب وراء عــدم تغلغــلِ الدّيمُقرَاطيّــة فــي الإسْــلَام لا يــكادُ يكونُ لهُ علاقة بــأي عَدم تَوافقٍ أساســيّ للدّين مع الدّيمُقرَاطيّة (...) لقد فشــلتْ عمليــة التّحول الدّيمُقرَاطيّ إلى حدّ كبير بســبب الخطر الأصوليّ المتمثل في الخوف من أنْ يَكونَ هناك في المســتقبل رجــلٌ واحد، صــوتٌ واحد، وســلطةٌ واحــدة... » (الإيكونوميســت، ٢٠٠٣). وقد جاء الإسْــلَام في القُرآن الكريم بمجموعة من التّشــريعات الإلهية، الموجهة مباشــرة إلى النّبي محمــد، وهي بالنتيجة ليســت موضــع مراجعة. لكــن من النّاحية العملية فإنَّ هذه التّشــريعات لا تفي بكل متطلبات المنظومة الاجتماعية وهي في كُلّ الأحوال غير كافية لاحتياجات الدّولة الحَدِيثة. وينبغــي إيجاد قوانين آخرى، عَلى سَــبيلِ المِثَال إيجــاد آليــة لتعيين الحكومــة بما يتيــح المجال للممارســات الدّيمُقرَاطيّة. بيد أنه يمكننا أن نجد مفاهيم في القُرآن تشــجع هذه الممارســات مثل الإجماع والشــورى. ومنــذ عبد النّاصــر، يواصل مؤيدو القومية العَرَبيّة، التي هي مزيج من مبادئ الاشــتراكية والرّغبة فــي توحيد العالــم العَرَبيّ، التّأكيد بأن القوى الاستعمارية قد أضعفت العرب عمــدًا من خــلال تقســيم أراضيهم إلــى دويلات صغيرة مصطنعة: وهذا ما يفسّــر جهود التّوحيد علــى نمــوذج التّكامــل الأوروبــي، أو الاتحادات السّيَاسِــيّة، لكنها فشلت أو لم تحقق تقدمًا يذكر ومنهــا (اتحاد المغرب العَرَبــيّ ومجلس التّعاون العَرَبــيّ ومجلس التّعاون الخليجي).وعلى الرّغم من الثّقافة واللُّغَة المشــتركتين، والنمو السّكاني القــوي، ووفرة موارد الطّاقة، إلا أنه لا شــيء من ذلك قد ساعد في تحسين الاوضاع، غير أن القومية لا تــزال حية. وقد انخفــض النّمو الاقتِصَاديّ الى أقل من ١٪ ســنويًا منذ عام ١٩٩٠، كما أن دخل الفرد يتناقص بانتظام، حتــى في البلدان الغنية بالنفط، مثل الكويت والإمارات وليبيا... إن الدّول الإسْــلَاميّة التــي تؤلف ٢٠٪ من ســكان العالم لا تنتج إلا ٦٪ فقط من الثّروات على مستوى العالم. فكيف وصل الأمر إلى هذا الحال؟

٢. أسباب متداخلة

يعــزو المستشــرقون الأوائــل فــي أوروبّا، أي مستشرقو عصر التّنوير، في تحليلاتهم الانحدار العَرَبــيّ إلى التّضييــق التّدريجــي لحرية الفكر، وأيضًا إلــى الغــزو العُثمَانِيّ، حيث تســبب غزو البرابــرة لروما بقــرون مظلمة وبمــا أطلق عليه بالعُصُــور الوُسْــطَى. وهــذه كانــت هــي الرّؤية السّــائدة في القَــرْن الثّامن عشــر التــي يذكرها لورينــز (٢٠٠٠): «كان الإسْــلَام خــلال القرون الأولــى من ظهوره، وفــي ظل الاســتبداد الواعي

للخلفاء الأمويين والعباسيين، متسامحًا للغاية تجاه الفكر الحر للفلاسفة العرب، ولكن مُنذُ القَرْنِ الثّالث عشر الميلادي، أخذ التّعصب الدّيني يسود فبدأ الإسْلَام يحظر تدريجيًا كُلّ فكر حُر، وكُلّ فضول فكري. ومن ناحية أخرى، فرض الأتراك، وهم في الأساس غير مُتحضّرين استبدادًا عَسكَريّا خانقًا، ودعموا التّعصّب الدّينيّ في قمع حُريَّة الفكر. وقد نُظر إلى الأتراك على أنهم غزاة، شأنهم في ذلك شأن الألمان في العُصُور القديمة المتأخرة عَلى سَبيلِ المِثَال. أمَّا التّفسير الثّاني فلم يعد له اليوم وجود بسبب التّلميع الواضح للبلاط والمُجتَمَع العُثمَانِيّين اللّذين ورثا الثّقافة البيزنطيّة. لكن التّفسير الأول، القائم على الدّين والسّلوك، يبقى تفسيرًا أساسيًا، كما سنرى في أدناه. مع ذلك فإنَّ العوامل الاقتِصَاديّة، المرتبطة بالزّراعة والتّجارة، هي التي خضعت للبحث كثيرًا في ما بعد. وسنتحدث عنها بشكل منفصل من أجل زيادة الإيضاح، ولكن من الواضح إن هذه التّفسيرات المختلفة مرتبطٌ بعضُها ببعض.

٢. ١. الزّراعة

كانت ندرة المياه من أبرز سمات الزّراعة وقد عمد المزارعون المسلمون الى تحسين تقنيات الرّي الموروثة من العُصُور القديمة ومنها آبار الشّادوف[٤] والنّواعير والسّدود وخطوط الأنابيب والقنوات، وهي أمثلة على تلكم الأساليب التي تنطوي على إدارة مشتركة وكذلك تدخّل الدّولة. وكانت الأرض تُزرع بمساعدة المحراث، وهو مناسب إلى حد كبير للتُربة الجافّة، مع قليل من السّماد. يتعايش المزارعون مع مربّي الحيوانات بانسجام نسبيّ: وهناك من يتحدث عن تعايش بين الزّراعة والثروة الحيوانية في العَالَم الإسْلَاميّ (حوراني،١٩٩١). كانت الملكيّة بشكل أساسي عَامَّة: الأراضي التي يتم غزوها تخصص للخليفة وتستغلها الدّولة مباشرة (حيازة مباشرة للأرض) أو تكون حيازتها غير مباشرة للأفراد بنظام المُزارَعَة (دفع حصّة من المَحصول للدّولة). أمَّا الأراضي الخَاصَّة فتخضع للضّريبة (الخراج). كان النّاتج يسوق تجاريًا بحرية وسط احترام للحريات الاقتِصَاديّة الأساسية، ومع ذلك، فإنَّ الاقتصاد الرّيفي شهد تدهورًا في عهد العُثمَانِيّين. ويُعدّ العديد من المؤلفين إنشاء الاستثمار الزّراعيّ المتمثل بنظام الالتزام[٥] ، عاملًا في التّدمير التّدريجي للزراعة وبالتالي في تراجع الإمبرَاطوريّة. ويتضمن نظام الالتزام منح الدّولة لمدة قصيرة صلاحية استحصال الضّرائب على الأراضي من الملتزمين، وهم عادة الأثرياء. ويذكّر هذا النّظام بالإقطاعيّين الذين يستغلون المزارعين في النّظام القديم. يدفع المُلتَزمون مقدمًا المَبالغَ للدّولة، ثُمَّ يكونون مسؤولين عن تحصيلها من المزارعين. وعلى وفق لورنس (٢٠٠٠)، فإنَّ هذا النّظام سلبيّ للغاية، لأنَّ المُلتزمين «لا يحتفظون باستثماراتهم الزّراعيّة

(٤) الشادوف: آلة تستخدم في عملية برفع المياه. (المترجم).

(٥) الالتزام: نظام طبّقه العثمانيون يخول الدولة الحصول على مقدار ثابت ومحدد من المال والعوائد يعود لصالح خزينتها

إلا مـدّة قصيرة فقـط، ويُفرطون في اسـتغلال الفَلَّاحين مِمَّا يتسـبب في تدمير الزّراعة «. ووفق التّقاليد الإسْلَاميّة، يعدُّ الفَلَّاحون شاغلينَ لأراضٍ مملوكـة لمـن هم فـي السّـلطة. يتولـى مجتمع القرية بشكل جماعي شؤون الإدارة في ظل نظام مُجتمعيّ يُمكن مُقارنتُـه بنظامِ الحقل المفتوح، ولكـن المِلكيَّة عائدة للدّولـة، والمِلكيّات الخَاصَّة نادرة. وبالطريقة نفسها، يُرجع بيير ديون وجون جاكار (١٩٧٨) الرّكود الاقتِصَاديّ للإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة إلى تشـكيل مناطق كبيرة تدار بشـكل سـيئ:»كان أصحابها، الذين يجرى اسـتغلالهم لصالـح الـوزراء وخصيـان القصر، يشـاهدون وجـود مصدر للدّخـل والسّـلطة المَحَليّة ... نجد هنا مسـاوئ النّظام اللّاتينيّ، وقد فاقمه الإهمال الإداريّ، وتعسّف الآغا والباشا، والإخضاع المتزايد لغير المؤمنين. فبقيت عملية نموّ الأراضي قديمة للغاية وتعاني النّقص الشّديد، إذ تركت مساحات جبليّـة هائلة لهجـرة قطعـان الماعـز والأغنام. وفـي الأماكن الأخرى، يمـارس الفَلَّاحون الزّراعة الرّديئـة المختلطـة مع الملتزميـن، وهي لا تكاد توفّر لهم سـبلَ العيش وتلبية مطالب الوجهاء... الذين يحتفظون بما يصل إلى ثلثي المحصول... في مثل هذه الظّروف، سـواء أكانوا مُسـلِمينَ أم مَسـيحيّين، عليهـم ألّا يأملوا في أي تحسّـن في أحوالهم... أمَّا المبالغ التي يسـتحصلها السّلطان ومقربوه وأفراد الطّبقة الأرسـتقراطية الطّفيليّة، فهي لا تُسـتخدم إلا في مواصلة الحروب المكلفة والاستيراد لسدّ الاحتياجات «. ومع ذلك نشير إلى أنّ هنـاك تفاوتًا كبيرًا بين البلدان الإسْـلَاميّة في ما يخصّ المناطـقَ الزّراعيّة والمناطـق الرّعويّة عَلى سَـبيلِ المِثَال. وقـد كان (الملِك)، وهو نظام المِلكيّـة الخَاصَّـة، هو السّـائد حيثمـا يوجد ريّ (ملكيّـة المياه تكون في بعـض الأحيان منفصلة عن ملكيّة الأرض). ومن الضّروريّ أيضًا الإشارة إلـى نظـام «الملكيـة الجماعية الخَاصَّـة»، الذي يُسـمّى أيضًـا الملكيّـة القبليّة أو الأرشـيّة، وهو يختلفُ عـن الإقطاع (ملكيّة السّـلطان الممنوحة للضّباط). ولذلك يبدو أنّ النّظام يجمع بين عيوب الإدارة المجتمعية، التي تميز العُصُور الوُسْـطَى الأوروبية وإفريقيا السّوداء الحَدِيثة، والإقطاعيّات اللّاتينيّـة من النّـوع اللّاتينيّ، مـن روما القديمة إلـى أمريكا الجنوبيـة اليوم، مع ابتـزاز ضرائبِ الاسـتثماراتِ الزّراعيّة، المماثلـة لتلك التي كانت موجودة في فرنسـا في ظل النّظام القديم. وفي ظلّ هذه الظّروف، ليس من المستغرب ألا يحدث أي تقـدم فـي الرّيف، ولا أي ثـورة زراعيّة، وهو ركود له تداعيات على الاقتصاد برمته.

٢. ٢. التّجارة الخارجية

إن تراجـع التّجـارة فـي العَالَم الإسْـلَاميّ هو التّفسـير التّقليـدي لهذا الانحـدار على وفق رأي عديد المُؤَرِّخين الذين يستشهدون بكيفية تعرض التّجـارة في بلاد الشّـام إلى تحايـل الأوروبيين: فقـد كان البرتغاليـون يجوبـون أفريقيا للبحث بشـكل مباشر عن التّوابل، في حين يَعبرُ الإسبان المُحيط الأطلسـيّ لينتهي بهم الأمر ليس بالعثور على قارة جديدة، بل على طرق جديدة إلى آسـيا ليصبـح العَالَـمُ الإسْـلَاميّ عندهـا بمثابة طريق

تجـاري مُغلـق – في حيـن كان يقـع حتى ذلك الوقت فـي المركز الجغرافي للقـارات المعروفة – ولتصبـح الطّرق الجديدة للتجارة العَالَمِيّة منذ ذلـك الحين هي طـرق المُحيط الأطلسـي. وعلى وفـق جوزيف بورلـو (١٩٩٠)، فإنَّ هـذا يعني اختناقًا بحريًا: «لقد سرق البرتغاليون من الأتراك دور الوسيط بين الشّـرق الأقصى والغرب». وقد احتلت أوروبّا الغَربيّـة مذاك موقعًا مركزيًا. ومن أجل تفسـير الاندفاع الأوروبي نحو منطقة البحر المفتوح، يشير غروسـيه (١٩٤٨)، الى الحروب الصّليبية، التي أدَّى فشـلُها إلى اكتشافات كبرى: «إن سقوط مسـتعمرات الفرنجة في سوريا، مع محافظة سلاطين مصر على احتكارهم الحصري ـــ والسّـيء ـــ للتجـارة فـي المُحيـط الهِنديّ، هـو الذي أرغـم ملّاحي دول أقصـى الغرب على البحث عن طريق مباشـر إلى الهند من وراء كيب تاون». ويـروي المُؤَرِّخون كيف هيمن الملاحون البرتغاليـون فالهولنديـون، ومن ثـم التّجار من جميـع أنحـاء أوروبّا، علـى البحـار العَرَبيّة مُنذُ القَـرْنِ السّـادس عشـر. ففي اللّحظـة التي هدَّد الاندفـاع العُثمَانِـيّ فيها أوروبّا المَسـيحيّة حتى فيينا وفي جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسـط، جعل البرتغاليون من أنفسهم سادة، «بالاستيلاء علـى القارّة الهائلـة من الخلف لمهاجمـة العَالَم الإسْـلَاميّ بـدون دروع » (غروسـيه)، وهو أكثر المناطـق سـكانا فـي العالـم. وقد هيمنـوا على التّجارة في الشّـرق طوال القَرْن السّـادس عشر بحفنـة من الرّجال والسّـفن، وبفضـل المدفعية المتفوقة، فسجلوا حضورَهم في غوا بالهند، وفي جاوة وسـومطرة في جـزر الملـوك، وفي ماكاو بالصين، وقاموا بجمع الحَريـر والفلفل والتوابل الأخرى، وشـحنها أمَّا إلى أوروبّا أو إلى وكالاتهم التّجاريّة فـي هرمز، عند مدخـل الخليج العَرَبيّ حيث يسـتبدلون بها مع العَالَم الإسْلَاميّ الأسلحة والخيول والأموال. وهكذا نشأت تجارة مثمرة بين الغَربيّين والعرب وآسيا، نظّمها البرتغاليون. وقد استمر التّراجع التّجاريّ في ظل العُثمَانِيّين، كما يوضح فيرناند بروديل (١٩٧٩): «إن إمبرَاطوريّة العُثمَانِيّين كيان واحد؛ فهي مجموعة متماسـكة من الأراضي حيث المياه المتدفقة من البحار. إنها الأرض التي تشـكل مفترق طرق الشّـرق الأدنى، الـذي يمنح الإمبرَاطوريّـة التّركية المصدر الحيّ لقُوَّتِها... صحيح أن الشّـرق الأوسـط لم يعد في هذا الوقت مفترق طـرق العالم بامتياز، كما كان في زمن بيزنطة وأيام الانتصارات الأولى للإسلام، بيد أنّ اكتشاف أمريكا والطريق إلى رأس الرّجاء الصّالح جاء في مصلحة أوروبّا...الإسْلَام التّركي لم يسـتولِ على المغرب وجبل طـارق ولم يصل إلـى المُحيط الأطلسـيّ؛ ولم يسـيطر على البحر الأبيض المتوسط بأكمله، وفي الشّرق، لم يتمكن من السّـيطرة علـى بلاد فـارس، الحاجز الذي لا يمكن التّغلـب عليه والذي حرم الأتراك من مواقع ضرورية...كانـت معركـة ليبانتـو، التـي أنهت السّيطرة العُثمَانِيّة على البحر الأبيض المتوسط، وبروز بلاد فارس في المجال الحربي تحت حكم الشّـاه عباس، من الأسـباب الرّئيسة لوقف تقدم الاتراك...وينبغي ألا نسـتهين بالوجود البرتغالي الذي كان يسـتخفّ بالإسْلَام في المُحيط الهِنديّ:

لأنَّ نصر التّكنولوجيا البحريّة الأوروبية هذا، أدَّى إلى منع الوحش التّركي مـن الخروج الفعّال من الخليج الفَارِسِـيّ والبحر الأحمـر». كانت تجارة الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة مع بقية أوروبّا تتم تحت العلم المَسـيحيّ، وكذلك المِلاحـة البحرية داخل الإمبرَاطوريّة... والتقنيـات البحرية الغَربيّة أكثر تقدمًا وليس بوسـع السّـفن التّجاريّة التّركية أو المصرية منافستها. نرى ذلك في التّفصيل الآتي الـذي أورده برنارد لويس (١٩٨٢): لدى وصول سـفينة إنجليزيـة تحمل السّـفير البريطاني إلى الباب العالي فـي عام ١٥٩٣، كتب مراقب مَحَليّ أنه «لم تدخل سفينة بمثل هذه الغرابة إلى ميناء إسـطنبول من قبـل، فقد عبـرت ٣٧٠٠ ميل في البحـر ومعهـا ٨٣ مدفعًا، بالإضافة إلى أسـلحة أخرى». وكانت التّبـادلات التّجاريّة غير متوازنة، واستيرادات اسطنبول كبيرة دون أنْ يَكونَ لديها الكثيـر مِمَّا تصـدره مقابل ذلك، وهـو أمر يذكّر بوضع روما وبأحد أسـباب انحدارها. والأسوأ من ذلك أن السّـوق الدّاخلية تعاني من تشـرذم تام، والولايـات تعيـش في عزلـة، وهـي منكفئة على نفسـها، وتجارتها ضئيلة للغاية، بسـبب انعدام الأمن على نحو دائم في أسواق الإمبرَاطوريّة. وفي القَرْن الثّامن عشر، كانت الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة تصـدر بعض المواد الخام، فيما تشـتري معظم ما تحتاجه من منتجات فاخرة وسلع مصنعة من أوروبّا، في خضـم تجارة تمر عبر منافذ أجنبية، وهي حالة مزدوجة من التّبعية الاقتِصَاديّة.

لخصت لوسـيت فالنسي (١٩٧٨) نتيجة كُلّ ما حدث، الذي بدأ بتحول هائل في التّجارة العَالَمِيّة خلال مـا يقرب من قرنين من الزّمـان بما يأتي: «إن انعكاس مسـارات التّبادل التّجاريّ أدَّى إلى فقدان البلدان الإسْـلَاميّة لدورها بصفتها منطقة عبور وجعلهـا تعتمد على الموردين الأوروبيين.. ان انعـكاس طـرق التّجـارة، والتقسـيم الجديد للمهام يعنيان تبعية كاملة من البلدان الإسْلَاميّة... وفي وقـت مبكر من عـام ١٧٨٨، كتب السّـفير الفرنسي إن الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة كانت «واحدة من أغنى مسـتعمرات فرنسـا». كانـت التّقنيات التّجاريّة بدورها مختلفة للغاية. يتحدث بروديل عن اقتصاد البازار: «اقتصاد سوق يتمحور حول المدن والأسـواق الموسـميّة المَحَليّة، حيث يتميز النّشاط التّجاريّ الوفي للقواعد التّقليدية، بحسن النّية والشفافية». ويشير إلى «ثمة نوع من التّبادل التّجاريّ القديم» «، ويشـير، عَلى سَـبيلِ المِثَال، إلى ملاحظـة كتبها أحد المراقبيـن في نحو عام ١٥٥٠: » كل الأشـياء في تركيا تتم بالنقود. لذلك لا يوجد كثير من الورق، ولا مسـودات (سجلات) للدّيـون الائتمانيـة، ولا ورق صحف». وعلى نحو مماثل، تشير فالنسي (١٩٧٨) إلى الفجوة بين الشّرق والغـرب في الأعمـال التّجاريّة قائلـة: إنَّ «تُجّار مرسـيليا مثقلون بالعمل الورقيّ فهم يكدسـون السّجلات والمراسـلات ويقومون بحفظها. علاوة على ذلك، فإنَّ ثمة أمـرًا ملكيًا يلزمهم بالاحتفاظ بنسـخة مـن الرّسـائل المرسـلة. كان تعميـم المسـتندات التّجاريّـة المطبوعـة خـلال القَرْن الثّامن عشـر ـ سندات وبيانات الشّحن والبيانات الرّسـمية، وبوليصـات التّأمين ـ بمثابة ترشـيد للتقنيـات. كمـا أن الاسـتخدام العام للمحاسـبة

ذات القيد المزدوج، وتحسين تقنيات المحاسبة، وتوحيد أساليب مسك السّجلات، تشير أيضًا إلى صرامة أكبر في الإدارة، وكفاءة عالية للغاية في الاتصال واستخدام المعلومات. وكانت كُلّ طاولة بمثابة مكتب، فيما يظل الخان عبارة عن نزل ومخزن للبضائع. « ومع ذلك، فإنَّ التّحليل التّجاريّ للتراجع الإسْلَاميّ تشوبه فجوة واضحة، إذ أنه ليس بسبب تجاوز بلد ما اقتِصَاديًا- كما كانت هولندا مقابل إنجلترا في القَرْن الثّامن عشر، وكما كانت إنجلترا مقابل أمريكا في القَرْن العشرين، فإنَّ هذا البلد يبدأ بالتراجع بشكل مطلق. فهولندا على الرّغم من أنها كانت خلف البلدان الأخرى إبان الثّورة الصّنَاعيّة، حتى أنها صارت دولة صغيرة ويُستبعد تمامًا أن تهيمن على التّجارة العَالَمِيّة، كما كانت عليه في القَرْن السّابع عشر، إلا أنها بقيت دولة غنية ومتطورة. وكذا الحال بالنسبة لإنجلترا اليوم، التي لم تعدْ تهيمن على المُحيطات[٦]والاقتصاد والسّياسة العَالَمِيّة كما كانت عليه طوال قرن كامل، بين عامي ١٨١٥ و١٩١٤. على النّقيض من ذلك، فقد تراجع العالم العَرَبيّ والإسْلَاميّ، لا بشكل نسبي، بل بنحوٍ مطلق مقابل الغرب مُنذُ القَرْنِ السّادس عشر. وتعدّ هولندا وإنجلترا قوتين بسيطتين مقارنة بالولايات المتحدة، لكن مستوى معيشة سكانهما لا يكاد يبتعد عن مستوى معيشة الأمريكيين. من ناحية أخرى، فإنَّ جميع الدّول العَرَبيّة، التي كانت أغنى من أوروبّا الغَربيّة في العُصُور الوُسْطَى، تراجعت ووجدت نفسها من الدّول الفقيرة في القَرْن العشرين. لذلك يجب أن ننظر بدقة إلى ما هو أبعدُ من التّفسير الاقتِصَاديّ، ونتجه نحو التّحليل المُؤَسّساتي، بالمعنى الواسع لكلمة مُؤَسّسة، التي تستحضر المعتقدات، وقواعد اللّعبة والعقليات وحتى مجموعة «العادات المتبلورة» (بينايمي ١٩٦٠).

٢. ٣. المُؤَسّسات

«عندما احتل المسلمون بلاد فارس بين ٦٣٧ و٦٤٢ ووقعوا على عدد هائل من الكتب والنصوص العِلميّة، كتب سعد بن أبي وقاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه الإذن بأخذها وتوزيعها بين المُسلِمينَ، فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء. فإنَّ يكن ما فيها هدى فقد هدانا اللّه بأهدى منه وإن يكن ضلالًا فقد كفانا اللّه (مقدمة ابن خلدون)». هناك بعض التّعاليم القُرآنية التي تتعارض مع التّطور الاقتِصَاديّ: التّجارة الحرة، والمبادرة الفردية، والأرباح الشّخصية، كُلّ هذا يعد أمرًا مفروغًا منه سواء من جانب النّبي الذي كان تاجرًا أو من خلال الكتب المقدسة فيما تقتصر الأذونات على ما لا يستطيع القطاع الخَاصّ القيام به مثل تولّي مسؤولية الاحتكارات الطّبيعيّة، والإدارة العَامَّة للاقتصاد، و حالات إفلاس السّوق المختلفة. إن الإشارة الرّئيسة إلى سعر الفائدة وردت في سورة آل عمران- الآية ١٣٠: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً». مرة أخرى، يرى علماء اللّاهوت أن الأمر يتعلق هنا بالرّبا، لا التّعاطي

(٦) كما جاء في الأغنية الوطنية: «بريطانيا تحكم الأمواج ». «Britannia rules the waves ».

بالفائدة الاعتيادية. ونجد أيضًا النّوع نفسه من المحظورات في الغرب، وفي الدّول الكاثوليكية حتى القَرْن الثّامن عشر. وأخيرًا، يرى الإسْلَام أن الحياة اليومية للإنسان يجب ألا تنفصل عن البيئة الأخلاقية القائمة على القيم المشتركة، وبالتالي لا يجوز ترك السّوق الحر على رسله، إذ يجب أنْ يَكونَ محاطًا بقواعد، قواعد غير اقتِصَاديّة، تميل إلى اللّحاق بتطور الأفكار السّائدة في الغرب منذ أزمة ١٩٢٩. مع ذلك، فإنَّ تفسيرات رجال الدّين للقرآن قد قللت، كما يبدو، تدريجيًا من الابتكارات، وإن لم يكن القُرآن معاديًا للنشاط الاقتِصَاديّ. وقد رأينا أنه في نحو عام ١٠٠٠، تجاوزت العلوم والتقنيات في العَالَم الإسْلَاميّ نظائرها في أوروبّا، التي لم تتمكن من استعادة تراثها إلا ببطء ومن خلال الاتصالات مع المُسلِمينَ في المناطق الحدودية مثل إسبانيا. وقد شرح ديفيد لانديس (١٩٩٨) آلية تحول المحظورات الدّينية إلى انسداد اقتِصَاديّ، من خلال المثال المعروف المتمثل برفض الطّباعة، التي يحظرها رجال الدّين: كان لا بد من نسخ القُرآن يدويًا، ولم يكن من الممكن طباعة الخط العَرَبيّ المقدس. وكان أي كتاب يعد تدنيسًا وهرطقة: «في العُصُور الوُسْطَى، كان الإسْلَام هو المعلم في أوروبّا، ولكن في ما بعد حدث تلكؤ ما.. فقد ضيَّق المتعصبون دينيًا الخناق على العلوم الإسْلَاميّة، وعدّوها هرطقة وذلك تحت ضغوط لاهوتيّة تتعلق بالتوافق الرّوحيّ، وقد مثّل هذا الأمر مسألة حياة أو موت للمُفكّرين والعلماء. كانت الحقيقة مكشوفة لدى الإسْلَام المتشدد، ما جعل الحقيقة ذات جدوى ومباحة. وكُلّ ما تبقى لم يكن إلا تضليلًا وخداعا. (...) وقد حظرت البلدان الإسْلَاميّة الطّباعة مدة طويلة لأسباب دينية؛ وكانت فكرة إمكانية طباعة القُرآن غير مقبولة فيما كان لدى اليهود والمَسيحيّين، دون المُسلِمينَ، مطابع في إسطنبول. وعلى النّقيض من ذلك في أوروبّا، حيث لم يكن بوسع أحد التّغطية على التّقنيات الجديدة، وكانت السّلطات السّيَاسِيّة مقسمة. وقد حاولت الكنيسة الحدّ من ترجمة النّصوص المقدسة باللغات المَحَليّة، وحظر نشر الكتابات الكنسية وغيرها، لكن جرى الالتزام بأوامر الكنيسة. لقد خرجت شياطين الهرطقة من صناديقها قبل وقت طويل من ظهور مارتن لوثر، ومنعتهم الطّباعة من العودة إليها. (...). والنتيجة هي أن العَالَم الإسْلَاميّ انقطع عن تدفق المعرفة التي تنشرها الكتب، مفضّلًا العزلة الفكرية والتخلف التّقني والتبعية الصّنَاعيّة. (...) كان الضّرر بنيويًا، مُؤَسّسا على عقيدة دينية وتحافظ عليه الأعراف. وزادت البيروقراطية البيزنطية من تعقيد الأمور عبر أنظمتها غير المفهومة، في حين كان الفساد هو السّبيل الوحيد للحصول على الأشياء (...) وبمجرّد أن وصلتْ الإمبرَاطوريّة إلى حدودها الاقليمية، مع غياب أي فتوحات جديدة تفضي إلى الحصول على غنائم، أخذت السّلطات تلتفت إلى الدّاخل بحثًا عن الموارد، ضاغطة على رعاياها، بيد أنه لم يكن هناك موارد مؤكدة، كما لم يكن هناك ثروات لدى كبار الشّخصيات. وكان ذلك الطّريق المثالي لتدمير الذات».

يثير برنارد لويس في كتاب له بشأن أسباب تراجع الإسْلَام (١٩٨٢)، التّساؤلات بشأن انغلاق العَالَم الإسْلَاميّ على نفسه، ويقينه في تفوقه، وثقته العمياء في تسيده، ثم رفضه تبني الأفكار والتقنيات الغَربيّة، الآتية من شعوب كان ينظر إليها منذ مدة طويلة بعين الازدراء، فعلى مدى ألف عام، هيمن المسلمون على المجالات العَسكَريّة والاقتِصَاديّة والتقنية، وأنشأوا أول شكل من أشكال العولمة، من خلال الرّبط بين شعوب شديدة التّنوع: «لم يكن هناك سوى حضارة واحدة يمكن مقارنتها مع السّلطة الإسْلَاميّة عندما كانت في أوجها، من ناحية الحجم والنوعية والتنوع والإنجاز وهي الصّين. بيد أن الحَضَارَة الصّينية ظلت مَحَليّة إلى حد كبير، مقتصرة على منطقة محددة، هي شرق آسيا، وعلى مجموعة عرقية محددة ... وعلى النّقيض من ذلك، خلق الإسْلَام حضارة عالمية متعددة الاثنيات، ومتعددة الأعراق، ودولية، ويمكن القول أيضًا أنها عابرة للقارات. لكن المُسلِمينَ، على عكس المَسيحيّين في العالم العَرَبيّ، لم يسافروا إلى الغرب، ولم يتمكنوا من العيش بين غير المؤمنين، ولم يكن لديهم حتى سفارات دائمة، ولم يتحدثوا بلغات الغَربيّين ولم يسعَوا إلى تعلمها، ولم يكن لديهم «مستغربون»، مثلما هناك مستشرقون في أوروبّا. وتطبيقًا لحَدِيث ينسب إلى النّبي مفاده ان: «من تشبه بقوم فهو منهم»،كما ينقل موكير (١٩٩٠)، فإنَّ الدّولة العُثمَانِيّة كانت منغلقة على نفسها بوجه المُسَاهَمَات الخارجية، إلا في المجال العَسكَريّ، وكانت ترى أن جميع الإجابات على الأسئلة قد قدّمتها الأجيال السّابقة بالفعل، ولذا ينبغي الاكتفاء بديمومة تقاليدها. ولم يبدأ الشّرق بالتعلم من الغرب إلا في القَرْن التّاسع عشر، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان وعلى مضض، كما في حالة محمد علي في مصر، وبعد ذلك في القَرْن العشرين في عهد أتاتورك.

يعود تاريخ الطّروحات بشأن دور العقليات والثقافة في التّنمية الاقتِصَاديّة إلى ماكس فيبر وذلك قبل قرن من الزّمان. ومن بين التّحليلات الحَدِيثة، يمكن الاشارة إلى هاريسون (١٩٩٢) الذي يبيّن أن القيم والسّلوكيات هي أصل النّجاحات في آسيا، على عكس التّحديات في مناطق أخرى من العالم الثّالث، مثل أمريكا اللّاتينية، وهي عدم الاستقرار وعدم المساواة والفساد.

ويرى سويل (١٩٩٤) بالمنوال نفسه أن «ازدراء التّجارة والصّناعة كان سائدًا قرونًا عدة بين النّخب ذات الأصول الأسبانية، في كُلّ من إسبانيا وأمريكا اللّاتينية»، وهذا ما يفسر التّأخير. وقد طور السّيَاسِيّون أفكارًا مماثلة، بما في ذلك لي كوان يو، رئيس وزراء سنغافورة السّابق، الذي يمجد «الديناميكية الدّاخلية للرجل الآسيوي». ويشدّد فوكوياما (١٩٩٥) وبيريفيت (١٩٩٥) على دور الثّقة داخل المُجتَمَع فهما يريان أنَّها عنصر ثَقَافِيّ منتشر ولكنه مفرط في الانتشار، وهو ما يؤثر في ازدهار الاقتصاد وقدرته على التّنافس. إنّ المجتمعات ذات الثّقة المتدنية، على وفق فوكوياما، مثل الصّين أو إيطاليا أو فرنسا، حيثُ لا تتجاوز العلاقات الوثيقة بين النّاس حدود الأسرة، تجد صعوبة في

تطوير مُؤَسّسات مجتمعية معقدة مثل الشّركات الكبيـرة متعددة الجنسـيّة، وعليهِ فهي في وضع تنافسـي غيـر مـواتٍ مقارنـة بالمجتمعات ذات الثّقـة العالية مثل ألمانيـا أو اليابـان أوالولايات المتحدة. بعد ذلـك، حاول بعض المؤلفين الرّبط بين الثّقافة والنظام السّيَاسِـيّ. ورأوا عَلى سَبيلِ المِثَال أن الدّيمُقرَاطيّة لا يمكن أن تصل بسـهولة إلى أي بلد؛ بل أنّ الأمر يسـتغرق عقودًا أو قرونًا من التّغلغل في النّسـيج الاجتماعي حتى تتحقق الدّيمُقرَاطيّة، فلا يمكـن ارتداء الدّيمُقرَاطيّة مثل المعطـف... وهكذا فـإنَّ مناطق شـمال إيطاليا، حيث ظهرت الـرّوح المدنيـة مُنذُ القَـرْنِ الرّابع عشـر، ما تزال اليوم أكثر تقبلًا لعمل المُؤَسّسات الدّيمُقرَاطيّة من مناطق الجنوب.

ومـن أجـل أن ننهـي الحَدِيـث عـن التّنميـة الاقتِصَاديّة، لا بد لنـا بطبيعة الحال من أن نذكر صامويـل هنتنغتـون ومقالته الشّـهيرة «صراع الحَضَـارَات؟»، التي نشـرها في مجلـة (فورين أفيـرز) فـي العـام ١٩٩٣، ثـم أعقبهـا بكتـاب بالعنـوان نفسـه في عـام ١٩٩٦، وكانت سـببًا لسـجال متواصـل، إذ تحدث المؤلـف عن حرب ثقافات، يبـدو أنّ الأحداث الأخيـرة تبررها قائلًا «فرضيتي أنّ المصدر الأساسـي للصراع في هذا العالم الجديـد لن يكون آيديولوجيًـا في الدّرجة الأولى ولا اقتِصَاديّا. وسـيكون الانقسـام الكبير داخـل البشـرية والمصـدر الرّئيـس للصراعات ثَقَافِيّـا. إن الثّقافـة والهويـة الثّقَافِيّـة يشـكلان أنماطًـا جديدة من التّماسـك والتفـكك والصّراع فـي عالم ما بعد الحرب الباردة... وإنّ السّياسـة العَالَمِيّـة يعاد تشـكيلها علـى أسـس ثَقَافِيّة ». ويقـدم باربر (١٩٩٥) نسـخة شـائعة من هذه الأفكار، مؤكدًا أن الصّراعات الرّئيسة ستدور بين القيم المَحَليّـة والقبلية من جهة (الجهاد) والقيم العَالَمِيّـة للتكنولوجيا والدّيمُقرَاطيّة (عالم ماك). وفـي ما يتعلـق بأمن التّجـارة والممتلـكات في العَالَم الإسْـلَاميّ، وكذلك علاقـات الثّقة بالدولة، الضّروريـن جـدًا للتنميـة الاقتِصَاديّـة، فـإنَّ الممارسـات بهذا الشّأن موضع شـك أيضًا، فإذا لاحظنـا في وقت معين احترامًـا لحقوق الملكية، على غرار ما درج عليه الغرب، فإنَّ معظم الكتّاب يلاحظون تدهـورًا تدريجيًا في هذا المجال، على عكس أوروبّـا حيث تبدو هذه الحقوق مقدسـة، بخَاصَّة في إنجلتـرا بعد الثّورة البرلمانية سـنة ١٦٨٩. ففـي الأندلس، عَلى سَـبيلِ المِثَال، يبدو أن احترام الحقـوق والأمن هو القاعدة: «أمسـك الحاجـب المنصور بزمام السّـلطة بقوة. وكانت إسـبانيا المُسـلِمَة تـدار بحـزم وكفـاءة وعدالة نسـبية، فتمتعت بأفضل إدارة في العالم الغَربيّ. وقد ضمـن لها زعيمها عقدين من السّـلام داخل حدودهـا. وكان المجرمون والمتآمـرون، وأيضًا بعض مثيري الشّغب، يُعاقبَون بلا رحمة ويجرى تسميمهم أو صلبهم وتعليق جثثهم على المشانق على ضفاف الأنهار. كان الجواسـيس نشـطين، والشـرطة تراقـب الطّـرق والأسـواق. فأصبـح بالإمـكان من جديد السّـير ليلًا فـي قرطبة دون كثيـر من الخوف » (لانغلييـه، ٢٠٠٠). ويصف لورينز أيضًـا الحالة الإيجابية فـي الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة، في نموذج امرأة عجوز في اسـطنبول ترفـض السّـماح بمصادرة ممتلكاتهـا (من أجل توفير مصدات للحريق بيـن المباني) على الرّغم

مـن العروض الجيـدة المقدمة إليها، ولما سـئل السّـلطان: لماذا لم يسـتخدم سـلطته، ولماذا لم يأخذ هذه الأرض بدفع قيمتها، أجاب: هذا شـيء مستحيل، لا يجوز، فهي ملكها.

وعلـى أيـة حال، فإنَّ الأمثلة كثيـرة في الاتجاه المعاكـس، والتطور لا يكاد يكـون إيجابيًا: ينقل تشـودوري (١٩٩٠) اقتباسًـا عـن خليفة بغداد «هـذا الذي يحظـى بأفضل حياة فهـو لديه بيت كبيـر، وزوجـة جميلـة، ومـوارد كافيـة، وهو لا يعرفنـا ولا نعرفه...» ويصـف برووديل (١٩٧٩) كذلـك انعدام الأمن وعدم احتـرام حقوق الملكية في الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة، على الرّغم من إرساء سـلام تركي، نقلًا عن سـفير فرنسـي في القَرْن السّـابع عشر: « السّيد العظيم فوق القانون، فهو يقتل رعاياه حتى دون إجراءات شكلية وفي كثير من الأحيان بلا أي سـند قانوني، ويسـتولي على جميع ممتلكاتهم ويتصرف فيها حسـب رغبته... (...) الشّـر، أو الشّـرور، التي تعمل بهـا تركيا، كانت حسـب الطّلب ودفعة واحدة: لم تعد الدّولة مطاعة؛ فالذين يعملون لديها يتقاضون رواتبهم بالمعدلات القديمة، بينما يتصاعد غلاء المعيشة: وهم يعوضون ذلك بالاختلاس».

وأخيرا، تظل الضّرائب افتراسية بشكل واضح، على النّقيض من أوروبّا حيث تترسـخ ممارسات الشّـفافية والنزاهة في العصر الحَدِيث ويتواصل تداول رؤوس المال مِمَّا يعزز الاسـتثمار والنمو، فيما تسـتمر فـي التّخفي في الشّـرق، خوفًا من تعسـف السّـلطة. وكثيرا مـا نتصـور أن الدّولة العُثمَانِيّة جامدة على المسـتوى السّيَاسِيّ، دون أي سـلطة للشـعب في اتخـاذ القـرار، لكن في الواقـع هناك آلية يعبّـر من خلالها الشّـعب عن إرادته، وهي شـرعنة الإسْـلَام للثـورات. ويصف لورنـس (٢٠٠٠) الوضـع بالقـول: «إذا انتهـك السّلطان حقوق رعاياه، فإنه يخاطر بالإطاحة به عبر ثورة شـعبية تدافع عن تطبيق القانون (...) تحدث ثورة شـعبية، وينضم جـزء من الوحدات العَسـكَريّة إلـى الحركة. ثـم يقرر علمـاء الدّين المصادقـة علـى فتوى شـرعية بعزل السّـلطان بسـبب إمعانه فـي المظالم، ويصار إلى تسـمية خليفة جديد وهو دائمًا ما يكون من عائلته. (...) وهكذا، فإنَّ الإمبرَاطوريّـة العُثمَانِيّة، التي يعدّها الأوروبيـون اسـتبدادية، هـي في الواقـع نظام معقد...» ومع ذلك، بقي المسـلمون معادين إلى حد كبير للموجة التي سـببتها الثّورة الفرنسـية، كمـا يتضح من فشـل الحملة المصريـة، وكذلك ردود الفعل العُثمَانِيّة على أفكار ١٧٨٩.

٢. ٤ السّكان

لقد كان العَالَم الإسْـلَاميّ دائمًا أقل كثافة سكانية مقارنة بالغرب، وذلك بسـبب الظّروف الطّبيعية شـديدة الصّعوبـة، وكثـرة المناطـق القاحلـة، وانعدام التّقنيـات المتقدمة في المجال الزّراعيّ. إن غلة الأرض وناتج المزارعين في الشّرق الأوسط هي الأقل، والكثافة السّكانية منخفضة للغاية.إن «البلـدان الخاضعة للعُثمَانِيّين تعـد عالمًا خاويًا بالمقارنة مع أوروبّا»(لورنس٢٠٠٠). فضلًا عن ذلـك، فإنَّ البلدان الإسْـلَاميّة هـي الأكثر تعرضًا لهجمـات الغزاة الآسـيويين، كما رأينـا في حالة المغـول، وأيضًا لهجمات البـدو الرّحل القادمين مـن الصّحـراء، والبدو الذيـن ينهبـون بانتظام المـدن والفَلَّاحيـن المسـتقرين، وكُلّ ذلـك يثير

انعدامًا للأمن بشـكل دائم، وعقبة أمـام التّنمية. كمـا أن العَالَـم الإسْـلَاميّ أكثر عرضـة للأوبئة، بسبب موقعه المركزي عند أبواب آسيا: «استوطن الطّاعون الإمبرَاطوريّة العُثمَانِيّة، وقد تم تصديره ببساطة إلى أوروبّا» (المصدر نفسه). وظل الأمر كذلك حتى القَرْن التّاسـع عشـر، في حين جرى احتواؤه فعليًا في الغرب في القَرْن السّـابع عشر باتخـاذ التّدابيـر الوقائية مثل الحجـر الصّحي، وهو أمر يتجاهله المسلمون.

كانـت التّغيـرات الدّيموغرافيـة متوازيـة إلى حد كبير في كلتا الحضارتين فقد شـهد القرنان الرّابـع عشـر والخامـس عشـر انهيـارًا بسـبب الطّاعون الأسـود، الذي دمّـر أوروبّا أيضًا. وعلى العكس من ذلك، كان القَرْن السّادس عشر حقبة توسـع وازدهار، توافقت مع عصر النّهضة (مدة حكم فرانسـوا الأول وسـليمان القانوني).غير أن القَرْن السّـابع عشـر كان حقبة تراجـع، كما هو الحال في فرنسا عَلى سَـبيلِ المِثَال مع مجاعات متكررة في عهد لويس الرّابع عشـر. وكذلك شهد القَرْن الثّامن عشـر تطورًا مشابهًا، تمثّل بنهضة سـكانية في الشّـرق كما في غـرب أوروبّا، لكن الفـرق هو أن أوروبّا الغَربيّة خرجت عند ذاك من الفخ المالتوسـي[٧] ، بفضل الثّورتيـن الصّنَاعيّة والزراعيّة وشهدت انفجارًا سـكانيًا مستمرًا، في حين ظل العَالَم الإسْـلَاميّ عالقًا في حركة بندول خَاصَّـة بالمجتمعـات التّقليديـة، عالقًـا في هذا الفخ، مـع مزيد من الانخفاض في عدد السّـكان فـي القَرْن التّاسـع عشـر. لـم يحـدث الانفجار السّـكاني إلا في القَرْن العشرين مع ظهور الطّب الحَدِيـث. وبالنتيجة فإنَّ الفـارق الرّئيس هو أن الدّخـول في التّحول الدّيموغرافـي والخروج من الفخ المالتوسـي في الغرب يمثـلان آلية داخلية مرتبطة بالتقـدم الزّراعيّ والصّنَاعـيّ، في حين كانـا خارجيين في العَالَم الإسْـلَاميّ، يُجلبان من الخارج عـن طريق تقنيات تـؤدي إلى انخفاض معدل الوفيات.

٢. ٥ وضع المرأة

يصـف لويس (٢٠٠٢) المتضادات الأساسـية الثّلاثـة التـي تميـز العَالَـم الإسْـلَاميّ: السّـادة والعبيد، والرّجـال والنسـاء، والمؤمنين والكفار قائـلًا «كان يُنظـر إلـى الثّلاثة – العبـد والمرأة وغير المؤمن – على أنهم ملزمون بأداء الوظائف الاجتماعيـة الضّرورية ... وهم يخضعون لقانون يطبق بصرامـة يحد من قدرتهم، ويفرض عليهم قيودًا يومية. وكان يُنظر إلى هذه الفئات القاصرة علـى أنها جـزء متأصل في الإسْـلَام، أسـس لها الوحي الإلهي، ووصايا النّبي وممارساته، والكتب المقدسة وتاريخ المجتمع.إلا أنه وخلافًا للاعتقاد السّـائد، كانت حقـوق المرأة لوقـت طويل أكثر تطـورًا في العَالَم الإسْـلَاميّ منها فـي أوروبّا: » كانت المرأة المُسـلِمَة تتمتع بحقوق تملك أوسع مِمَّـا في الغرب حتى وقت قريـب» (لويس).وفي القَرْن العشرين على وجه التّحديد، أحدث الغرب

(٧) الفخ المالتوسي أو فخ تعداد السـكان هو الوضع الذي يتوقـف خلاله النمو السـكاني بسـبب نقـص الإمدادات الغذائيـة، ما يـؤدي إلى المجاعة. سـميت نسـبةً لتوماس روبرت مالتـوس، الذي كان رأى أن التقـدم التكنولوجي يمكن أن يزيد موارد المجتمع مثل الغذاء، وبالتالي يتحسن مسـتوى المعيشـة، ويتزايد النمو السـكاني(ويكيبيديا - المترجم).

ثورة فـي وضع المـرأة، لأنَّ الوضع في السّـابق لـم يكـن مختلفًا تقريبًـا. وفي البلاد الإسْـلَاميّة، اتخذ العلماء منذ العُصُور الوُسْـطَى موقفًا مؤيدًا للمسـاواة، وذلك لأسباب اقتِصَاديّة. وكان هذا هو موقف ابن رشـد إزاء المـرأة بالأندلس في العهد الإسْلَاميّ، إذ اسـتخدم هذا الفيلسوف صورة من حياة الحيوانات ليظهر المسـاواة بين الجنسين، في فقـرة قدمها عبد الوهاب المـؤدب (٢٠٠٢): «إن كلاب الحراسـة الإناث، على الرّغم من كونها أضعف، إلا أنها شرسة شـأنها شأن نظرائها من الذكور في قتال الضّبـاع التي تهاجم القطعان». وبما أن رعاية المرأة تشكّل عبئًا ثقيلًا على الرّجل، فإنها أصبحت أحد أسباب بؤس تلك المدن. لأنهن لا يشـاركن في الأنشـطة الضّروريـة؛ ولا يكدن يسـهمن في الإنتاج إلا في مِهنٍ بدائيّة مثل الغزل والنسـيج. هذه هي شـهادة ابن رشـد الواضحة، التي هي بطبيعة الحال لمصلحة مسـاواة المرأة، وتدعـو ضمنًا إلى تحررها. وهو يتقاطع، بلجوئه إلى الجدل الاقتِصَاديّ، مع المطالب النّسـوية في عصرنا، التي تربط تحرير المرأة بمشـاركتها في الإنتاج من أجل تجنيبها التّبعية المالية.

ويعد نامق كمال واحدًا من أوائل الأصوات التي ارتفعـت في الدّولة العُثمَانِيّة ضد عدم المسـاواة بين الجنسـين، مؤكدًا الآثار الاقتِصَاديّة الكارثية لذلـك، يقول كمال وهـو من حركـة (العُثمَانِيّين الشّـباب) بهذا الشّأن في عام ١٨٦٧: «يُنظر إلى نسـائنا حاليًا على أنهنَّ ليس لهن دور مفيد آخر للإنسـانية سـوى إنجاب الأطفال. إذ يُنظر إليهن علـى أنهن أشـياء للمتعة، وحسـب، مثـل الآلات الموسـيقية والمجوهرات، غير أنهن يؤلفّن نصف الجنس البشـري، وربما أكثـر. إنّ عملية منعهن مـن المُسَـاهَمَة بجهـود دعم الآخرين وتحسـين أوضاعهم، تنتهك القوانين الأساسية للتعاون في المُجتَمَـع لدرجـة أنّ بلدنا يُصاب مـن جرّاء ذلك بشـلل من جانب واحد شأنه شأن جسم الإنسان. ومع ذلك فإنَّ المرأة ليسـت أدنـى من الرّجل في قدراتها الفكرية والجسـدية فقد شـاركت الرّجل في الماضي جميع الأنشطة، بما في ذلك الحرب. وما زالت تتقاسم معه العمل في الحقول.. ويأتي سـبب هذه القيـود على نشـاطهن من الشّـعور بأنهن جاهلات تمامًا ولا يعرفن شيئًا عن الحقوق والواجبـات والصّالـح والطالـح. إن هـذا الحكم القاصر تترتب عليه آثار سـيئة كثيرة، أولها سوء تربية الأبناء». (نقلًا عن لويس، ٢٠٠٢). وقد كانت تركيـا هي الدّولة الإسْـلَاميّة التي نفذت في وقت مبكـر إصلاحات في هذا المجـال، وذلك في عهد مصطفى كمال أتاتورك في العشرينيات من القَرْن الماضـي، وهـو تطور لم يُحتذَ بـه إلا على نطاق ضيق في سـائر بلاد العَالَم الإسْـلَاميّ، باستثناء تونـس، بـل كان يتوقف في بعـض الأحيان، كما في حالة إيران الخميني، التي شهدت تراجعًا عن إصلاحات الشّاه التي كانت لصالح المرأة. ويشير لانديـس (١٩٩٨) أيضًا إلـى الآثـار الاقتِصَاديّة السّـلبية للتمييـز، وكذلك لتعـدد الزّوجات، التي تتضمن انعدام الأمن الدّائم في زعَامَّة الدّولة: «إن سـلب المرأة مكانتها يرقى إلى حرمان البلاد من العمل والمواهب، ولكن الأخطر من ذلك، أنه يرقى إلـى تقويـض إرادة النّجاح والإنجـاز لدى الأولاد والرّجـال.إذ لا يمكـن تربية الأبنـاء بحيث يعتقد نصفهـم أنهـم متفوقون علـى المـرأة بيولوجيًا، مـن دون الحدّ من طموحاتهم وتقليل إنجازاتهم.

(...) كما تثار مسألة شرعية الأبناء من جراء تعدد الزّوجات والمحظيات وكثرة النّسل (ماذا يمكن لحاكم مترف أن يفعل غير ذلك؟ يا له من دليل مثالي على القوة والطاقة...). وفي الواقع، كانت الطّريقة العُثمَانِيّة لحل المشكلة هي خنق جميع المنافسين المُحتملين بحبل حريريّ وبدقة شديدة. مثل هذه الأفعال الأخيرة لم تكن تحرض على القتل الاستباقيّ للمنافسين فحسب، بل أيضًا لأمّهات المنافسين (حُبسنَ في أكياس وألقيَ بهنّ في مضيق البوسفور)، وكذلك حبس وريث العرش بشكل صارم في الحريم، ليكون في منأى عن مخاطر الاختراق. وقد أدت هذه العزلة القاسية إلى عجزه الفكري والسّيَاسِيّ. وبدءًا من القَرْن السّابع عشر فصاعدًا، لم يعد للسّلطان المستقبلي كيان، بل كان لعبة في أيدي الآخرين. واليوم تغيرت الأمور في البلدان الإسْلَاميّة قليلًا، لكن مشاركة المرأة في المجال الاقتِصَاديّ هي الأدنى بين جميع الحَضَارَات.

٢. ٦. العبودية والعمل

ظهر الإسْلَام في القَرْن السّابع الميلادي في زمن مقارب للعصور القديمة واستمرت العبودية في عهده، فيما كانت أوروبّا الإقطاعية تتسم بالرق وهو حالة مختلفة. ففي نظام العبودية للعبد صلة مباشرة مع السّيد تتمثل في حق الثّاني تملكه. أمَّا في حالة الرّق فالصلة بين الرّقيق وسيده غير مباشرة وإنما من خلال الأرض، إذ يمتلك السّيد الاقطاعي الأرض، وبالنتيجة يمكنه التّصرف بعمل الأرقاء المرتبطين به. لكن ليس لديه حق ملكية مباشرة لهم ولا يمكنه بيعهم، والحيازة الوراثية تمنح الرّقيق ونسله الحق في العيش على الأرض التي يعمل بها. إذًا فإنَّ العبودية والاتجار بالعبيد يحتلان مكانة مهمة في الاقتصاد الإسْلَاميّ. إذ كانت الشّعوب السّلافية وكذلك شعوب الشّمال غير المَسيحيّة (الانجلوسكسونيون والاسكندنافيون) ينقلون عبر ممالك الفرنج إلى ليون والبندقية حيث تتطور التّجارة المربحة مع العالم العَرَبيّ، ولكن أيضًا ينخفض عدد السّكان السّود والآسيويين (الأتراك)، في حين يتم بالطبع الحفاظ على أهل الذمة والمُسلِمينَ (راجع لومبارد، ١٩٧١). وقد أدَّى تنامي التّوحيد والإسْلَام في آسيا، والمَسيحيّة في أوروبّا الشّرقية، إلى تخفيف تدفق عمالة العبيد. إلا أن أفريقيا، التي هي خارج منطقة السّاحل الإسْلَاميّ، بقيت بمثابة أرض صيد للمتاجرين بالبشر. وقد كانت ممارسة العبودية أحد عوامل تراجع الإسْلَام، كما كانت عاملًا من عوامل الرّكود التّقني والاقتِصَاديّ في المجتمعات القديمة. وقد أدَّى ارتباط صورة العبد بمفهوم العمل إلى ازدراء العمل، وهو ما يفسر عدم اهتمام القدماء بتقنيات الإنتاج، عَلى سَبيلِ المِثَال أن طواحين المياه كانت معروفة لدى الرّومان، لكنهم لم يحاولوا استخدامها على نطاق واسع، في حين شهدت أوروبّا في العُصُور الوُسْطَى ثورة تقنية حقيقية مع تعميم استخدام طواحين المياه. وثد شهدت البلدان الإسْلَاميّة الظّاهرة نفسها لكن مع عدم الاهتمام بتطوير تقنيات الإنتاج. وعلى النّقيض من ذلك في الغرب، فقد شهدت العُصُور الوُسْطَى تمجيدًا للعمل والتقنيات. وعَلى سَبيلِ المِثَال وصف وايت

(١٩٧٨) الأمر بقولـه: «كان الإبداع التّكنولوجيّ يتماشـى مـع روح الثّقافة الغَربيّة فـي العُصُور الوُسْطَى. كان الرّهبان على مدى قرون عدة الفئة الأكثر تعليمًا بين السّـكان، وقد كرسـوا أنفسهم للعمـل بوصفه شـكلًا من أشـكال التّصوف. في القَرْن الثّاني عشـر، وصف كاتب سـيرة مُعَاصِر القديس برنارد دي كليرفو بفخر سلسلة طواحين المياه في دير كليرفـو، وهي مطاحن كانت تدير عمليـات صناعيـة مختلفـة. (...) إذ أعطى عالم اللّاهوت هوغو دو سانت فيكتور لفنون الميكانيكا مكانًة فكريًة يُعتد بها في الأنشطة البشرية وذلك للمرة الأولى في التّقليد الغَربيّ مُنذُ القَرْنِ الحادي عشـر (...). وكان يُنظـر للتقـدم التّقنـي الـذي شـهدته نهاية العُصُور الوُسْطَى على أنه فضيلة مثلـى، وعلامة على طاعة الأمـر الإلهي بأن يعمّر الإنسان الأرض. وعلى الرّغم من الشّكوك المبكرة، وعَلمَنـة المواقف الدّينية حتى تلـك اللّحظة، فإنَّ فكـرة الإفادة مـن التّقنيات ترسَّـخت في الغرب بوصفها بديهية».

مـع ذلـك، فإنـه ينبغي وضـع هذا التّفسـير المبني على الآثار السّـلبية للعبودية في منظوره الصّحيـح، إذ أن للعبودية دورًا مختلفًا في العَالَم الإسْـلَاميّ عما كان عليـه في العُصُـور القديمة. فهي قبل كُلّ شيء شكل من أشكال العبودية غير المنتجة. كمـا يذكر ذلك حوراني (١٩٩١): «بيد أن العبيـد كانوا في معظمهم خدمًـا في المنازل أو محظيـات فـي المـدن». كذلك يبيّـن لورنس (٢٠٠٠) أنـه «في الإمبرَاطوريّـة العُثمَانِيّة، كما هو الحال في العُصُور الإسْـلَاميّة الأخرى ما كان لمنظومة العبودية أي وظيفة اقتِصَاديّة بوصفها وسـيلة للإنتاج، على نقيـض دورها في العُصُور القديمة... وهي قبل كُلّ شـيء واقع حال مَحَليّ». عـلاوة على ذلـك، كان العبيد يختلطون بسـرعة كبيـرة مع السّـكان، وهو ما يفسـر عـدم وجود أقليات سود مهمة في البلدان الإسْلَاميّة، في حين جـاء عدد كبير من العبيد من أفريقيا، على عكس العزل الواضح الـذي تمكنت أمريكا من تحقيقه، بوجـود مجتمعات سـود كبيـرة اليـوم. وأخيرًا، تحـرر العبيد بأعداد كبيـرة، وكوّن بعضهم نخبًا عَسـكَريّة [٨] اسـتولت فـي بعض الأوقـات على السّـلطة (كمـا فـي حالـة المماليك فـي مصر)، لتنتقل مـن وضع العبيد إلى وضـع يكونون فيه أسيادا على المُجتَمَع بأكمله..

٢. ٧. الجغرافية

يبقـى البحـر في نهاية المطـاف هو العنصر الأبرز فـي تحضر الأمم. فلـو أن تعرجات عميقة قـد قطعـت افريقيا بواسـطة المُحيط الاطلسـي المهيـب، بدلًا مـن امتدادهـا على خط سـاحلي موحد، لـكان مصير سـكانها قد أختلـف كثيرًا! « (ديفيـد ليفينغسـتون، يوميـات ليفينغسـتون الأفريقيـة، ١٨٥٣-١٨٥٦، دار نشـر شـابيرا، ١٩٦٣). وقـد درس باحثون مختلفـون العوامل الجغرافيـة للتراجع فـي البلدان الإسْـلَاميّة ومن بينهـم إيريـك جونـز (١٩٨١) الذي يشـدد عَلى سَـبيلِ المِثَال، على ما يعانيه العَالَم الإسْلَاميّ من

(٨) كان لـدى الأمويـين ١٠,٠٠٠ من السـلاف الحرس العبيـد في قرطبة في القرن العاشر. و ٢٤ ألف تركي و٤٠ ألف مملوك أسـود في مـصر في القرن التاسـع (لومبارد، ١٩٧١).

جفاف وفقر في الموارد الطّبيعية الاستراتيجية مثل الخشب والحبوب والمعادن. وقد استغل خصوم الإسْلَام هذه الثّغرات، فعَلى سَبيلِ المِثَال، عملت الممالك المَسيحيّة كُلّ ما بوسعها للحد من صادرات الحديد والخشب والحبوب إلى البلدان الإسْلَاميّة. من جانبه، يقدم تيلييه (٢٠٠٢) تفسيرًا «طوبوديناميًا» مرتبطًا بالجغرافيا والتطورات الاجتماعية والاقتِصَاديّة فهو يرى أن اكتشاف أمريكا، وإحياء التّوسع نحو الغرب هو العامل الحاسم: «لقد انتقلت القوة الاقتِصَاديّة تدريجيًا من الشّرق إلى شمال إيطاليا، ثم إلى شمال أوروبّا». وأخيرًا، بعد الثّورة الصّنَاعيّة، إلى الولايات المتحدة مع تكوين «ممر أمريكي» يبدأ من سيئول وطوكيو ليصل إلى لندن وبرلين وموسكو، مع وجود مدن كبرى في وسطه مثل لوس أنجلوس وشيكاغو ونيويورك. نجد هنا ثانية التّفسيرات التّجاريّة وفقدان الموقع المركزي في التّجارة العَالَميّة. إذ يؤكد بلوت (٢٠٠٠) كذلك، في نهج ماركسي جديد، دور العالم الجديد بقوله: استخدمت أوروبّا الغَربيّة مواردها للسيطرة على بقية العالم ومنع تطوره. وهي حتى قبيل العام ١٥٠٠، لم تكن، بحسب المؤلف، مختلفة عن الحَضَارَات الأخرى، ولا أكثر دينامية، ولا أكثر ابتكارًا، ولا تحظى بمُؤَسّسات مواتية للنمو. يحاول بلوت بدوره أن يقوض بنبرة جدلية انتقدها موكير، الأفكار المتعارضة لـ «ثمانية مُؤَرِّخين من ذوي النّزعة المركزية الأوروبية»، من ضمنهم ويبر ولانديس وجونز ووايت ودايموند. ويقدم ديفيد كوساندي (١٩٩٧) تحليلًا أكثر أصالة، مع تركيزه على الجوانب العِلميّة والتقنية، وأسباب النّمو الأوروبي في هذا المجال مقارنة بالثقافات الأخرى. إن الموقع الجغرافي الفريد لأوروبّا الغَربيّة، التي يخترقها البحر بقوة، وتميزها بالبحار، هو ما يفسر نجاحها وتأخر الحَضَارَة الإسْلَاميّة والهند والصّين على العكس من ذلك. فمن ناحية فإنَّ التّجارة تصبح سهلة نظرًا لوجود البحار، وهذا ما يؤدي إلى تقسيم للعمل أكثر وضوحا، تقسيم مولّد للنمو، يسمح بفائض لتمويل الباحثين والعلماء. إذ أن الازدهار الاقتِصَاديّ، المرتبط بالتجارة والبحر، هو أول عوامل التّقدم التّقني والعِلمي. والعامل الثّاني، وهو مرتبط دومًا بوجود البحر، هو تقسيم أوروبّا إلى دول مستقرة، محمية بحواجز طبيعية واضحة (السواحل رسمت مقدمًا حدود إسبانيا وبريطانيا العظمى واليونان وإيطاليا وهولندا والدّنمارك وغيرها..).ويعد التّقسيم السّيَاسِيّ المستقر للدّول أحد عوامل التّنافس الخلاق في المجال العِلميّ والتقني، إذ تميل كُلّ دولة إلى إيلاء أولَويَّة للأبحاث من أجل التّميز على غيرها. على النّقيض من ذلك، في الإمبرَاطوريّات الموحدة والقوية، مثل إمبرَاطوريّتي الإسْلَام والصّين، وفي ظل عدم الحذو حذو الآخرين، والدّور السّلبي لجماعات الضّغط المناوئة للتغيير، فإنَّ مثل هذه الظّروف المواتية لم تكن ذات فائدة في مجال الاختراعات.

٢. ٨. المدن

ثمة فرضية أخرى، طوّرها برودیل (١٩٧٩) وهيلبرونر (١٩٨٩)، تشير إلى دور خاص لمدن في أوروبّا الغَربيّة، تستفيد من سقوط قوة

مركزية – اختفاء الإمبرَاطوريّة الرّومانية والتفتت السّيَاسِـيّ الشّـامل الذي أعقب ذلك في العُصُور الوُسْـطَى – لتأكيد استقلالها وامتيازاتها، وتبني الحريـات الاقتِصَاديّة التي تتسـم بها رأسـماليّة السّوق (حرية التّجارة، وحرية الاستثمار، وحرية الأسـعار، وغيرها).ويشـدد وايت (١٩٧٨) أيضًا على عقليات سـكان المدن الأوائـل، القادمين من الرّيـف، والمعتاديـن على ممارسـات مسـتقلة: «كانـت بداية الثّورة الزّراعيّة فـي أوائل العُصُور الوُسْـطَى غيـر واضحـة المعالـم مع اسـتخدام السّـلاف آلـة حراثـة ثقيلة ذات عجـلات، يجرها قطيـع من ٤ إلـى ٨ ثيـران. وقد عثـر عليها في منطقة سـهل بـو عام ٦٤٣، فيما لـم يعثر عليها فـي بريطانيا العظمى إلا في القَرْن التّاسـع عند غزوات الشّمال... وقد وجد الفَلَّاح الشّمالي أخيرًا أداة تتـلاءم مـع بيئته». ولأن مثل هـذا العدد من الحيوانـات لا يتوفـر إلا لدى قلة مـن المزارعين، لذلـك كان من الضّروري تكويـن جماعات وعقد اتفاقـات مـن أجـل اسـتخدامها. ناهيـك عن أن الأرض لم يكن بالإمـكان أنْ تَكونَ فردية، فكانت هناك حاجة لمشاركتها في إطار الحقل المفتوح: «كان لا بد للزراعة أن تتم تحت رقابة صارمة من مجلـس القريـة... وقد أدَّى اسـتخدام آلة الحرث الثّقيلـة فـي شـمال غـرب أوروبّا إلـى الحد من الفرديـة ولكنه أفضى إلى بنـاء أنظمة قوية بين الفَلَّاحين لإدارة أنشطتهم الخَاصَّة. وعندما سمح الفائـض المتزايد لعدد كبير منهـم بالانتقال إلى المدن، أخذوا معهم عادات الاسـتقلال المجتمعي التـي كانت أقوى بكثير مـن كُلّ ما عرف في ظل الإمبرَاطوريّـة الرّومانية. ولذلـك بدأت المدن في وقت مبكر للغايـة في الكفاح من أجل أن تتحول إلـى مجتمعات برجوازيـة متحررة مـن أي ولاء لسـلطة أعلى وغالبًا ما تـم ذلك بنجاح. (...) كان المزارعـون يعرفـون أعمالهم مـن دون أن يبدوا تحفظًـا إذا مـا وجـدوا طريقـة أكثر كفـاءة في عملهم. إن الفَلَّاح الغبي أسطورة اخترعها سكان المدن الذين نسوا أسـلافهم الرّيفيين». (المرجع نفسه).

وحتـى لـو قامـت الشّـركات الحضرية بخنق الحريـات الاقتِصَاديّة تدريجيًا في نهاية العُصُور الوُسْطَى وفي العصر الحَدِيث، مؤدية إلى الانتقال نحو الرّيـف (نظـام التّخلص التّدريجـي)، فإنَّ الحركة كانت قد انطلقت، وستسـتمر الرّأسماليّة في تأكيد نفسها، لتلد بذلك الرّأسماليّة في المدن الغَربيّـة، مؤدية إلـى كامل العمليـة التي أفضت إلـى الثّـورة الصّنَاعيّة فـي القَرْن الثّامن عشـر: «في الغرب، كانت الرّأسـماليّة والمدن في الواقع وجهين لعملة واحدة (برودیل).»لم تسـتفد مدن العَالَم الإسْلَاميّ ـ كما هو الشّأن في الصّين والهند ـ مـن هذه الحريـات أبدًا، إذ بقيـت خاضعة الى إمبرَاطوريّات قوية ومركزية. وأخيرًا، فإنَّ سقوط الإمبرَاطوريّة الرّومانية من شـأنه أن يفسّـر عبر القرون، لماذا كانت الرّأسـماليّة الحَدِيثة اختراعًا غَربيًا.

٢. ٩. الجمل والعجلة

ألـف مُـؤَرِّخ أمريكـي مختص بالإسْـلَام في العُصُور الوُسْـطَى، هو ريتشـارد بوليـت، كتابًا تقليديًا (١٩٧٥) عن دور الجمل في اختفاء العجلة في الشّرق الأوسط بعد العُصُور القديمة قال فيه:

« إن الحكمة الشّعبية ترى أن العجلة من أكثر اختراعات الانسان حنكةً، أمَّا الجمل فهو من أقل مخلوقات اللّه ذكاء. وقد اختفت العجلة تدريجيًا لصالح الجمل والجمل العَرَبيّ ذي السّنام الواحد، بين القرنين الثّالث والسّابع الميلاديين (إذًا فإنَّ الإسْلَام قد ورث هذا الوضع ولم ينشئه)، والسّبب الرّئيس كان اقتِصَاديّا إذ إن التّنقل على ظهور الحيوانات أقل تكلفة من العربات التي تجرها الحيوانات، من دون أن نحسب كلف بناء الطّرق اللّازمة لهذه الأخيرة وصيانتها. وقد يفسر تدهور شبكة الطّرق في الإمبرَاطوريّة الرّومانية بعد القَرْن الثّالث، مع تراجع روما، التّواريخ المذكورة أعلاه. وإنْ لم تختفِ العجلة في بلاد الغال، بالرغم من اختفائها في أفريقيا والشرق، فإنَّ تفسير ذلك يكمن في عدم وجود الجمال في الغال. وكذلك يشير بروديل (١٩٧٩) إلى الاختلاف الآتي بين الثّقافتين: تتميز البيئة العُثمَانِيّة بوجود قوافل الجمال في كُلّ مكان...يمتد نشاط القوافل – الجمال والجمال العَرَبيّة – من جبل طارق إلى الهند وشمال الصّين، ومن شبه الجزيرة العَرَبيّة وآسيا الصّغرى إلى أستراخان وقازان.... وكثيرًا ما وصف المسافرون الغَربيّون وسائل النّقل هذه، وتجمع المسافرين بأعداد كبيرة في وقت واحد، والرّحلات الطّويلة حيث لا يجد المرء كُلّ مساء، كما هو الحال في إنجلترا، بلدات وملاهي ليلية للإقامة فيها، ومحطات توقف في الهواء الطّلق ليلًا عندما يسمح الموسم، أو في الخانات والنزل، والمباني الكبيرة المريحة وقليلة الكلفة «. وهكذا تخلت إحدى الحَضَارَات الإنسانية العظيمة عن العجلة لأسباب اقتِصَاديّة.

ينوه بوليت في كتابه وتحديدًا في فصل (مجتمع بلا عجلات)، إلى العقلية التي طورت حكمًا مسبقًا غير واعٍ ضد العجلة، وهي عقلية منتشرة في كُلّ مكان (عقلية ترفض تسيد العجلة)، وهي حقيقة تأكدت، عَلى سَبيلِ المِثَال في عدم وجود عَرَبات يد في مواقع البناء في طهران حتى القَرْن العشرين، أو بوجود الهوادج التي يحملها جمّالان بدلًا من أن تُجَرّ على عجلات، أو بسبب عدم وجود مدفعية متحركة في الجيوش العَرَبيّة. إن تأخر المجتمعات الإسْلَاميّة في اعتماد العجلة في ما بعد، أثناء حقبة الاستعمار، هو نتيجة لذلك، كما يشير تيلييه (٢٠٠٢): «عند ظهور وسائل النّقل الآلية، وجدت المجتمعات التي تتخذ من الجمال وسيلة نقل رئيسة، نفسها محرومة بشكل خاص نتيجة عدم وجود شبكة طرق لديها، وأيضًا لأنَّ استخدام العجلة والآليات المختلفة، التي أدت دورًا مهمًا للغاية في الثّورة الصّنَاعيّة، كان مهمشًا تمامًا لديها. بل إنّ فكرة استخدام الآلة نفسها كانت قد نزعت تقريبًا من أذهان السّكان الذين يعيشون على الجمال.» كان عرض أي شارع رئيس جديد في القاهرة، حتى عام ١٨٤٥، يُحدَد بإجمالي عرض جملين محملين « (بوليت). يمكن بالطبع إرجاع الشّوارع الضّيقة خلال العُصُور الوُسْطَى، في أوروبّا وكذلك في ألارضي الإسْلَاميّة، إلى عوامل أخرى فهي تسمح بكثافة سكانية أعلى، وبالنتيجة يسهل وصول المشاة إلى المدينة بسبب عدم وجود وسائل النّقل السّريع، كما أن مثل هذه الطّرق تسهل الدّفاع عن المدن، وتوفر الظّل والمأوى من الرّياح، وتسهل العلاقات الاجتماعية. ومع أن المدن الغَربيّة كانت

قد تكيفت مع تعميم استخدام العجلة، إلا أن الأمر لم يكن مماثـلًا في مدن العَالَم الإسْـلَاميّ، وذلك بسـبب خيار كان بالتأكيـد عقلانيًا فـي البداية، لكنه تحوّل لاحقًا إلى نوع من المأزق الفني.

الخاتمة

في نهاية هذا العرض الشّـامل من التّفسيرات، يبدو لنـا أنّ مجموعة من العوامـل، وليس عاملًا واحـدًا، تتيـح تسـويغ التّراجـع الـذي بـدأ في مرحلة متأخرة من العُصُور الوُسْـطَى. ويبدو أن الجوانـب الجغرافية كانت حاسـمة في التّفسـير بمعيّة العوامل الاقتِصَاديّـة (تحول التّجارة نحو الغرب مع اكتشـاف أمريكا، ونوع وسـائل النّقل المستخدمة، والنظم المتعلقة بالأراضي) وعوامل مُؤَسّسـاتية (غياب الإصـلاح السّيَاسِـيّ، وركود التّقنيات، والتفسـير المحافظ للدّين). غير أنه إذا كان من الممكن إلقـاء الضّوء على الماضي بهذه الطّريقـة، كمـا حاول بعـض الكتّـاب، فماذا عن الحاضر والمسـتقبل؟ كثيرا ما يقال إن الإسْـلَام يحتاج إلى إصلاح، إلى تطور مماثل لما شـهدته أوروبّـا فـي عصـر النّهضة ثـم عصـر التّنوير، والحجة التي تطرح أحيانًا هي أن الإسْلَام ولد في وقت متأخر، وهو ما قد يفسـر لماذا لم يمر بهذه المرحلـة حتى الآن: «نحـن الآن في العام ١٤١٥ حسـب التّقويم الإسْـلَاميّ. وفي أوروبّا، تم حرق يان هوس في العام ١٤١٥، ولكن في عام ١٤٣٦ في أعقاب الحروب الهوستية في بوهيميا، حصل أنصاره على تنازلات من الكنيسـة. وبحلول العام ١٤٧٠، كانت أناجيل غوتنبرغ منتشرة في جميع أنحـاء أوروبّا. وفـي العام ١٥٠٦، بـدأ المصلح الكبير زوينكلي بالوعظ والإصلاح في سويسـرا. وفي العـام ١٥١٧، قام لوثر بتثبيـت أطروحاته على بـاب كنيسـة فيتنبـرغ. وقد هـزت حركة الإصلاح أوروبّا الشّـمالية. اليوم، ونحن في عصر الإنترنت والسّـفر السّـريع عبر القارات إذ تتغير الأمور بسـرعة فائقة فإنَّ النّظرة التّفاؤلية يمكن أن توحي بتغيرات سـريعة وعميقة وإيجابية في البلدان الإسْلَاميّة»[٩].

إنَّ هـذه التّغيـرات السّـريعة تتطلب تحـولًا إلى الدّيمُقرَاطيّـة، ولكـن الدّيمُقرَاطيّـة، كمـا رأينا، كثيـرًا ما تعوقهـا حقيقة مفادها أن الإسْـلَاميّين المتطرفيـن يميلـون إلـى احتـكار المعارضـة. ولذلك فـإنَّ تراجع التّطرف يبدو شـرطًا لتطور العَالَم الإسْلَاميّ، سِيَاسِيّا واقتِصَاديّا. في الأحكام المسبقة التي أعرب عنها كلا الجانبين في منطقة البحـر الأبيض المتوسـط، يميل الإسْـلَام إلى عدّ الغرب غير أخلاقـي، فيما يراه الأخيـر متعصبًا. والتقارب لا يمكنُ أن يتحقـق إلا إذا تحلّى العَالَم الإسْـلَاميّ بقدر أكبـر من التّسـامح، وفي الوقت نفسه يُظهر الغرب قدرًا أكبر من الحسّ الأخلاقيّ، مع تفـادي التّطور نحـو الماديـة العقيمة. وفي ظـل ترويض السّـوق بقيـم عليا، مثـل التّجارب الدّيمُقرَاطيّة والاجتماعية التي تسـعى إلى القيام بذلك، كيف ينبغـي وضع المبادرة الفردية، وهي قـوة تحفز علـى التّقدم، في إطـار تضامني؟ إن بالإمكان تعلم قيم الإسْـلَام، الذي كان هدفه دائمًا هو أن يضع الإنسـان، وهو يعيش حياته اليومية، ضمـن القيـم الأخلاقية المشـتركة. ولذلـك فإنَّ التّقارب المزدوج سـيكون ضمانًا لتفاهم أفضل وتواصل من شأنه تخفيف التّوترات.

---

(٩) إيكونوميست، دراسة استقصائية عن الإسلام ١٩٩٤.

مصدر الدّراسة:

مجلة المنطقة والتنمية العدد ١٩-٢٠٠٤

المراجع:

إيكونوميست، دراسة استقصائية عن الإسلام ١٩٩٤.

باربر، بنجامين، الجهاد في مواجهة عالم ماك/ ،١٩٩٥،دار راندوم هاوز.

بورلو، جوزيف، الحضارة الإسلامية، ١٩٩٠، دار هاشيت.

بيرك، إدموند، تأملات في الثورة الفرنسية، ١٧٩٠.

بروديل، فرناند، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية.. من القرن الخامس عشر وإلى الثامن عشر،١٩٧٩، دار أرماند كولين

بلوت، جيمس، ثمانية مؤرخين أوروبيين،٢٠٠٠، دار غيلفورد بريس.

بوليت، ريتشارد، الجمل والعجلة،١٩٧٥، مطبعة جامعة هارفارد.

بينايمي،ألن، المؤسسات والعوامل الاجتماعية في النظرية الاقتصادية، المجلة الاقتصادية، المجلد ١١ العدد ٣ لسنة ١٩٦٠.

بيترز، رالف، ما وراء بغداد: حرب وسلام ما بعد الحداثة، ٢٠٠٣، دار ستيكبول بوكس.

بيريفيت، ألان، مجتمع الثقة، ١٩٩٥، دار أوديل جاكوب.

تشودوري، نيراد كيرتي, آسيا قبل أوروبا، ١٩٩٠، كامبريدج

تيلييه، لوك نورمان، ابن لادن وفضاؤه، المنظمات والأقاليم، ٢٠٠٢، دار أتيه برانتامب.

جونز، إيريك المعجزة الأوروبية،١٩٨١، مطبعة جامعة كامبريدج

حوراني، البرت، تاريخ الشعوب العربية، ١٩٩١، دار فيبر آند فيبر.

دايموند، جاريد، كتاب أسلحة وجراثيم وفولاذ،١٩٩٧، دار نورتون.

ديون، ب/ جاكوار، ج، دراسة «الإمبراطورية العثمانية»، تحرير ليون بيير. ضمن كتاب ترددات النمو ١٥٨٠-١٨٣٠، من سلسلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم، المجلد ٢، الناشر أرماند كولين.

غروسيه، رينيه، حصيلة التاريخ،، ١٩٤٨، دار بلون.

سويل، توماس، العرق والثقافة: وجهة نظر،١٩٩٤، دار بيزك بوكس.

شتراوس، ليفي، العرق والتاريخ، ١٩٥٢، اليونسكو

فالنسي، لوسيت، «العالم الإسلامي» الجمود والثورات ١٧٣٠-١٨٤٠، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم، المجلد ٣، تحرير ليون بيير،١٩٧٨، دار أرماند كولن

فوكوياما، فرانسيس، الثقة: الفضائل الاجتماعية ودورها في خلق الرخاء الاقتصادي، ١٩٩٥، دار فري بريس.

كوساندي، ديفيد، سر الغرب: من معجزة الماضي إلى الركود الحالي، ١٩٩٧،دار آرليا.

كوهين، دانيال،«هل هناك لعنة اقتصادية إسلامية ؟»، لوموند، ٦ نوفمبر ٢٠٠١.

لانديس، ديفيد، غنى الأمم وفقرها: لماذا بعضها غني جدًا وبعضها فقير جدًا، دار نورتون.

لانغلييه، جون بيير، «المنصور، ريشيليو الحرب المقدسة»، لوموند، ٢٦ يوليو/ تموز٢٠٠٠.

لانغلييه، جون بيير، محمود الغزنوي، كاسر الأصنام»، لوموند، ٢٨ تموز يوليو ٢٠٠٠.

لورنس، هاريسون، ١٩٩٢، من يزدهر؟ كيف تؤدي القيم الثقافية إلى النجاح الاقتصادي والسياسي، منشورات بيزك بوكس.

لورنس، هنري، المشرق العربي والعروبة والإسلاموية من ١٧٩٨ إلى ١٩٤٥، ٢٠٠٢، دار آرماند كولين.

لويس، برنارد، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ١٩٨٢، دار نورتون.

لويس، برنارد، ما الخطأ الذي حدث؟ التأثير الغربي والاستجابة في الشرق الأوسط، ٢٠٠٢، دار فينيكس.

لو بوشيه، إيريك، «ما وراء العراق، إفلاس العالم العربي»، لوموند، ٣ شباط/ فبراير٢٠٠٣.

لومبار، موريس، الإسلام في عظمته الأولى: من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر ميلادي/ ١٩٧١ دار فلاماريون.

المؤدب، عبد الوهاب، مرض الإسلام، ٢٠٠٢، دار سوي.

ميكور، جويل، رافعة الثروة: الإبداع التكنولوجي والتقدم الاقتصادي، ١٩٩٠،مطبعة جامعة أكسفورد.

هيلبرونر، روبرت، صناعة المجتمع الاقتصادي،١٩٨٩، دار برنتيس هول.

وايت، لين تاونسيند جونيور، الدين والتكنولوجيا في العصور الوسطى: توسع التكنولوجيا من ٥٠٠ -١٥٠٠، ١٩٧٨، مطبعة جامعة كاليفورنيا.